ابن عبد ربه

الأيدي السخية

892.78
I13144A
v.3

89
11
NOV 1

٣

٢٥

الايدي السخية

العقد الفريد

من اشهر المجموعات الأدبية عند العرب،
فيه أدب – وأقوال – ونوادر – وملح –
وتاريخ – واخبار الخ . الخ . . . .

•

الأيدي السخيّة

هو كتاب الزبرجدة الأولى من العقد،
مضبوط ومشروح بقلم

كرم البستاني

العقد الفريد

لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي

892.708
٣ I132i kaf
v.3
c.1

الايدي السخية

Cat. 26 Dec. '52

مكتبة صادر
بيروت

الحقوق محفوظة لمكتبة صادر

مطبعة المناهل : ٥٧ – ١٩٥١

كتاب الزبرجدة

في الأجواد والأصفاد

قال الفقيه أبو عمر أحمدُ بنُ محمد بنِ عَبْد ربّه ، تغمّده الله برحمته : قد مضى قولُنا في الحروب وما يدْخُلُها من النّقصِ والكمالِ ، وتَقدُّمِ الرجال ؛ على منازلِهم من الصبر والجَلَدِ ، والعُدّةِ والعَدَدِ . ونحن قائلون بعونِ الله وتوفيقه في الأجوادِ والأصفاد[1] ، إذ كان أشرفَ ملابسِ الدنيا ، وأزينَ حُلَلِها ، وأجلَبها لحَمدٍ ، وأدفعَها لذمٍّ ، وأسترَها لعَيْبٍ ، كَرمُ طبيعةٍ يتحلى بها السَّمحُ السَّريُّ ، والجوادُ السخيُّ ؛ ولو لم يكن في الكرمِ إلا أنه صفةٌ من صفاتِ الله تعالى تسمَّى بها ، فهو الكريمُ عَزّ وجلّ . ومن كان كريماً من خَلقِه ، فقد تسمَّى باسمِه ، واحتذى على صِفته .

•

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إذا أتاكم كَريمُ قومٍ فأكْرموه .

---

١ الأصفاد ، واحدها صفد : العطاء .

وفي الحديث المأثورِ : الخَلقُ عِيالُ الله ، فأحَبُّ الخَلقِ إلى الله أنفَعُهم لِعيالِه .

•

وقال الحسنُ والحُسينُ لعبدِ الله بنِ جعفر : إنك قد أسرفتَ في بَذْلِ المالِ ؛ قال : بأبي وأُمّي أنتما ، إن الله قد عوّدني أن يتفضّلَ عليّ ، وعوّدتُه أن أتفضّلَ على عِبادِه ، فأخافُ أن أقطَعَ العادةَ فيقطعَ عني .

•

وقال المأمونُ لمحمدِ بن عَبّادٍ المهلّبي : أنتَ مِتْلافٌ ؛ قال : مَنْعُ الجودِ سُوءُ ظَنٍّ بالمعبودِ . يقولُ الله عز وجل: وما أنْفَقْتم مِنْ شيءٍ فَهو يُخْلِفُه وهُوَ خَيرُ الرّازِقينَ .

•

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنفِق بِلالُ ولا تَخْشَ من ذي العَرْش إقلالاً .

مدح الكرم وذم البخل

قال النبي صلى الله عليه وسلم : اصطناعُ المعروف يَقي مَصارعَ السُّوءِ .

وقال عليه الصلاة والسلام : إن اللهَ يُحِبُّ الجودَ ومَكارمَ الأخلاقِ ، ويُبْغِضُ سَفْسافَها .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لقومٍ من العرب : مَن سيِّدُكم ؟ قالوا : الجَدُّ ابنُ قَيْسٍ على بُخلٍ فيه ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : وأيُّ داءٍ أدْوى من البُخلِ[1] !

يقول الله تعالى : ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هُمُ المُفْلِحونَ .

•

وقال أكثم بن صَيْفيّ حكيم العَرب : ذلِّلوا أخلاقَكم للمَطالبِ ، وقودوها إلى المحامِد ، وعَلِّموها المكارمَ ، ولا تُقيموا على خُلقٍ تَذُمّونه من غيرِكم ، وصِلوا من رَغِب

---

١ أي : أي عيب اقبح منه !

إليكم ، وتحلّوا بالجودِ يكسبكم المحبّةَ ، ولا تقتعِدوا البُخلَ[1] ، فتتعجّلوا الفقر .

أخذه الشاعر فقال :

أمِن خوفِ فقرٍ تعجّلتَه ، وأخّرتَ إنفاقَ ما تجمَعُ
فصِرْتَ الفقيرَ ، وأنتَ الغنيُّ ، وما كنتَ تعدو الذي تصنَعُ

•

وكتب رجلٌ من البخلاءِ إلى رجلٍ من الأسخياءِ يأمُره بالإبقاءِ على نفسِه ويخوّفُه بالفقرِ . فردَّ عليه : الشّيطانُ يَعِدُكُمُ الفقرَ ويأمرُكم بالفَحْشاء والله يَعِدُكُمْ مَغْفِرةً منه وفضْلًا ؛ وإني أكرهُ أن أترُكَ أمراً قد وقَعَ لأمرٍ لعلّه لا يقَعُ .

•

وكان خالدُ بن عبدالله القَسْري يقول على المِنبَر : أيها الناسُ ، عليكم بالمعروفِ ، فإن الله لا يُعدِمُ فاعلَه جوازيَه[2] ، وما ضعُفَتِ الناسُ عن أدائِه قوي الله على جزائه .

وأخذه من قولِ الحُطَيئة :

---

١ لا تقتعدوا البخل : لا تتخذوه مطية .

٢ جوازيه : المكافأة عليه .

من يَفْعلِ الخيرَ لا يَعْدمْ جوازيَهُ،
لا يَذهَبِ العُرفُ بين الله والناسِ

وأخذَه الحطيئةُ من بعضِ الكُتبِ القديمةِ . يقولُ الله تعالى فيما أنزَله على داودَ عليه السلام : مَن يَفْعلِ الخيرَ يجدْه عندي ، لا يذهب العُرْفُ بيني وبينَ عبدي .

•

وكان سعيدُ بنُ العاصِ يقولُ على المِنْبَر : مَن رَزقَه الله رِزقاً حسناً فليُنْفِقْ منه سِرّاً وجَهراً ، حتى يكونَ أسعدَ الناسِ به ، فإنما يتركُ ما يتركُ لأحدِ رجلين : إمّا لمُصلحٍ فلا يَقِلُّ عليه شيءٌ ، وإما لمُفسِدٍ فلا يبقى له شيء .

أخذه الشاعر فقال :

أَسْعِدْ بمالِكَ في الحياةِ ، فإنما
يَبقى ، خلافَك ، مُصْلِحٌ أو مُفْسِدُ

فإذا جَمعتَ لمُفْسِدٍ لم يُغْنِه ،
وأخو الصَّلاحِ قَليلُه يتَزيَّدُ

•

وقال أبو ذرّ : إنّ لك في مالِك شريكين : الحَدَثانَ والوارثَ ، فإن استَطَعتَ ألاّ تكونَ أبخسَ الشُّركاء حظّاً فافعَل .

•

وقال بُزُرْجُمِهْر الفارسيّ : إذا أقبلَتْ عليك الدنيا فأنفِق منها فإنها لا تفنى ، وإذا أدبَرَتْ عنك فأنفِق منها فإنها لا تبقى .

أخذ الشاعر هذا المعنى فقال :

لا تَبخَلَنَّ بدُنْيا ، وهي مُقْبِلةٌ ،
فليس يَنْقُصُها التبذِيرُ والسَّرَفُ

وإنْ تولَّتْ ، فأحرى أن تجودَ بها ،
فالحمدُ منها ، إذا ما أدْبَرَتْ ، خَلَفُ

•

وكان كِسْرى يقول : عليكم بأهلِ السَّخاءِ والشجاعةِ ، فإنهم أهلُ حُسنِ الظن بالله تعالى ، ولو أن أهلَ البُخلِ لم يدخُل عليهم من ضرر بُخلِهم ، ومَذَمّةِ الناسِ لهم ، وإطباقِ القُلوبِ على بُغضِهم ، إلاّ سوءُ ظَنّهم بربِّهم في الخَلَف ، لكانَ عظيماً .

وأخذ هذا المعنى محمودٌ الورّاقُ فقال :

مَنْ ظَنَّ باللهِ خيراً جادَ مُبتدِئاً ،
والبُخلُ مِن سُوءِ ظَنِّ المرءِ باللهِ

•

محمد بن يزيد بن عُمر بن عبد العزيز قال : خرجتُ مع

موسى الهادي أميرِ المؤمنين من جُرجان ، فقال لي : إما أن تحمِلَني وإما أن أَحْمِلَك ؛ ففَهِمتُ ما أرادَ فأنشدتُه أبياتَ ابن صِرْمة الأنصاريّ :

فأوصِيكُمُ بالله ، أوّلَ وَهلةٍ ،
وأحسابِكُم ، والبِرُّ بالله أوّلُ

وإنْ قومُكم سادوا فلا تَحْسُدُوهمُ ؛
وإن كنتمُ أهـلَ السيادةِ فاعدِلوا

وإن أنتمُ أعوزتمُ ، فتعفّفُوا ؛
وإن كانَ فضلُ المالِ فيكم ، فأفضِلوا

فأمر لي بعشرين ألفاً .

•

وقال عبدُ الله بنُ عبّاس : سادات الناس في الدنيا الأسخياءُ وفي الآخرةِ الأتقياء .

•

وقال أبو مُسلم الخَولانيّ : ما شيءٌ أحسنَ من المعروفِ إلاّ ثوابَه ، وما كلّ مَن قدَرَ على المعروفِ كانت له نِيّةٌ ، فإذا اجتَمعتِ القُدرةُ والنّيّةُ تَمّتِ السعادةُ ؛ وأنشد :

إنّ المكارِمَ كُلّها حَسَنٌ ، والبَذْلَ أحسنُ ذلك الحَسَنِ

كم عارفٍ بي لستُ أعرفه ، ومُخَبِّرٍ عنّي ، ولم يَرَني
يأتيهمُ خَبري ، وإن بَعُدَتْ داري ، وبُوعِدَ عنهمُ وَطني
إني لِحُرِّ المالِ مُمْتَهِنٌ ؛ ولِحُرِّ عِرْضي غيرُ ممتَهِنِ

•

وقال خالدُ بن عبد الله القَسْري : من أصابه غُبارُ مَركبي فقد وجَب عليَّ شُكْرُه .

•

وقال عمرو بن العاص : واللهِ لَرجُلٌ ذَكَرني ، ينامُ على شِقّةٍ مَرّةً وعلى شِقّةٍ أُخرى ، يراني موضِعاً لحاجتِه ، لأوجَبُ عليّ حقّاً إذا سألَنيها ، مني إذا قَضيتُها له .

•

وقال عبد العزيز بن مَروان : إذا أمكَنني الرجلُ من نفسه حتى أضَعَ مَعْروفي عنده ، فيَدُهُ عندي أعظمُ من يدي عندَه . وأنشدَ لابنِ عبّاسٍ رضي الله تعالى عنهما :

إذا طارقاتُ الهمِّ ضاجعتِ الفتى ،
وأعملَ فِكْرَ الليلِ ، والليلُ عاكِرُ

وباكَرني في حاجةٍ ، لم يَكُن لها
سِوايَ ، ولا مِنْ نَكبَةِ الدَّهرِ ناصرُ

فرَجْتُ بمالي همَّه عن خِناقِه ،
وزايَله الهمُّ الطَّروقُ المُساورُ

وكان له فضلٌ عليَّ بظنِّه
بيَ الخيرَ ، إني لِلّذي ظَنَّ شاكرُ

•

وقيل لأبي عُقيلٍ البليغِ العِراقيّ : كيف رأيت مَروانَ ابنَ الحكَم عند طَلبِ الحاجة إليه ؟ قال : رأيتُ رَغْبَته في الإنعام فوق رَغبتِه في الشكر ، وحاجتَه الى قضاء الحاجةِ أشدَّ من حاجةِ صاحبِ الحاجة .

•

وقال زياد : كفى بالبُخل عاراً أنَّ اسمه لم يقَعْ في حَمْدٍ قطُّ ، وكفى بالجُودِ فخراً أن اسمَه لم يقع في ذَمٍّ قط .

•

وقال آخر :

لقد عَلِمْتِ ، وقد قَطَّعْتِني عَذلاً ،
ماذا من الفَضْلِ بين البُخْلِ والجُودِ

إلاّ يَكُنْ وَرَقٌ يوماً أُراحُ به
للخابطين ، فإني لَيِّنُ العُودِ[1]

---

١ أراح : مضارع راح للمعروف : اخذته له خفة وحمية .

لا يعدَمُ السائلون الخيرَ أفعلـه،
إمّا نوالاً ، وإمّـا حُسْنَ مرْدودِ

قوله : إلاّ يكن وَرَق ، يريد المال ، وضَربه مثلاً . ويقال: أتى فلان فلاناً يختبِطُ مـا عندَه ، والاختباطُ : ضَرْبُ الشجرِ ليسقطَ الورقُ لتأكلَه السائمةُ ، فجعل طالبَ الرزقِ مثل الخابط .

•

وقال أسماء بن خارجة : مـا أُحِبُّ أن أرُدَّ أحداً عن حاجةٍ طلبها ، لأنه لا يخلو أن يكونَ كريماً فأصونَ له عِرْضَه ، أو لئيماً فأصونَ عِرضي منه .

•

وقال أَرِسْطوطاليسُ : من انتجعَك من بلادِه فقد ابتدأَك بحُسنِ الظنِّ بك والثقةِ بما عندَك .

الترغيب في حسن الثناء

واصطناع المعروف

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : إذا أردتم أن تعلَموا ما للعبدِ عند ربِّه ، فانظروا ما يتبعُه من حُسنِ الثناءِ .

•

وكتبَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعريّ : اعتبر مَنزِلتَك من اللهِ بمنزِلتِك من الناسِ ، واعلم أنّ ما لك عند الله مثلُ ما للناسِ عندَك .

•

وقيل لبعضِ الحكماء : ما أفادَكَ الدهرُ ؟ قال : العِلمَ به؛ قيلَ : فما أحمدُ الأشياءِ ؟ قال : أن تَبقى للإنسان احدوثةٌ حَسنةٌ .

•

وقال بعضُ أهلِ التفسير في قولِ الله تعالى : واجْعَل لي لِسانَ صِدْقٍ في الآخَرين . إنه أرادَ حُسْنَ الثناءِ من بعده.

•

وقال أكثمُ بن صَيْفي : إنما أنتُم أخبارٌ فَطَيِّبوا أخبارَكم.
أخذ هذا المعنى حَبيبٌ الطائيُّ فقال :

وما ابنُ آدمَ إلاّ ذِكْرُ صالحةٍ ،
أو ذِكْرُ سيّئةٍ يَسْري بها الكَلِمُ

أمَا سَمِعتَ بدَهرٍ بادَ أُمَّتُه ،
جاءت بأخبارِها مِن بعدِها أُمَم ؟

•

وقال أبو بكر محمد بن دُريد :

وإنما المرءُ حديثٌ بعدَه ،
فكُنْ حديثاً حَسَناً لمن وعَى

•

وقالوا : الأيامُ مَزارعُ ، فما زَرعتَ فيها حصدتَه .

•

ومن قولنا في هذا المعنى وغيره من مكارم الأخلاق :

يا مَن تَجَلَّدَ للزَّمانِ ، أما زمانُك منك أَجْلَدْ ؟
سَلِّطْ نُهاكَ على هَواكَ ، وعُدَّ يومَك ليسَ من غَدِ
إنّ الحياةَ مَزارعٌ ، فازرَعْ بها ما شِئتَ تَحْصُدْ
والنّاسُ لا يَبقى سوى آثارِهم ، والعَيْنُ تُفقَد

أوَما سمعت بمن مَضى ، هذا يُذَمُّ وذاك يُحْمَدْ
والمالُ إن أصلحتَه يَصْلُحْ ، وإن أفسَدتَ يَفْسُدْ

•

وقال الأحنفُ بن قَيس : ما ادَّخَرَتِ الآباءُ للأبناءِ ، ولا أبقتِ الموتى للأحياءِ ، شيئاً أفضلَ من اصطناعِ المعروفِ عند ذوي الأحساب .

•

وقالوا : تَربيبُ المعروفِ[1] أولى من اصطناعِه ، لأنّ اصطناعَه نافلةٌ ، وتربيبَه فريضة .

•

وقالوا : أحْيِ مَعروفَك بإماتةِ ذكرِه ، وعَظِّمْه بالتصغيرِ له .

•

وقالتِ الحكماءُ : مِن تَمامِ كَرمِ المُنْعِمِ التغافُلُ عن حُجَّتِه ، والإقرارُ بالفضيلةِ لشاكرِ نِعْمتِه .

•

وقالوا : للمَعْروفِ خِصالٌ ثلاثٌ : تَعْجيلُه وسَتْرُه

---

١ تربيب المعروف : تعهده وانماؤه .

وتَيْسيرُه ، فمَنْ أخلَّ بواحدةٍ منها فقد بخَسَ المعروفَ حقَّه ، وسقَطَ عنه الشكر .

•

وقيل لمُعاوية : أيُّ الناس أحبُّ إليك ؟ قال : مَن كانت له عندي يدٌ صالحةٌ ؛ قيل : فإن لم تكُن له ؛ قال : فمن كانت لي عنده يدٌ صالحة .

•

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : من عَظُمت نعمةُ الله عندَه عظُمت مَؤونةُ الناسِ عليه ، فإن لم يَقُم بتلك المَؤونةِ عَرَّضَ النِّعمةَ للزوال .

•

أبو اليَقْظان قال :

أخذ عُبيدُ الله بن زياد عُروةَ بن أُذينة[1] أخا أبي بلال وقطع يدَه ورجلَه وصلبه على باب داره ، فقال لأهله وهو مصلوب : انظروا الى هؤلاء المُوكَّلين بي فأحسنوا إليهم فإنهم أضيافُكم .

•

ابنُ المبارك عن حُميدٍ عن الحسنِ قال : لأن أقضيَ حاجةً لأخٍ لي أحَبُّ إليَّ من عبادةِ سنة .

•

---

١ لعلها أدية .

وقال إبراهيم بن السِّنْدي : قلتُ لرجلٍ من أهل الكوفةِ ، من وجوهِ أهلِها ، كان لا يَجِفُّ لِبْدُه[1] ، ولا يستريحُ قلبُه ، ولا تسكن حركته في طلب حوائجِ الرجال ، وإدخالِ المرافقِ على الضعفاء ، فقلت له : أخبرني عن الحالة التي خَفَّفَت عنك النَّصَبَ ، وهوَّنت عليك التَّعبَ في القيام بحوائجِ الناسِ ، ما هي ؟

قال : قد واللهِ سمعتُ تَغريدَ الطيرِ بالأسحارِ ، في فُروع الأشجار ، وسمعتُ خَفْقَ أوتارِ العيدانِ ، وترجيعَ أصواتِ القِيان ، فما طَرِبتُ من صوتٍ قطّ طَرَبي من ثناءِ حَسَنٍ بلسانٍ حَسَنٍ على رجلٍ قد أحسنَ ، ومن شُكرِ حُرٍّ لمُنعمٍ حُرٍّ ، ومن شفاعةِ مُحْتَسِبٍ لطالبٍ شاكر .

قال إبراهيم : فقلتُ له : للهِ أبوك ، لقد حُشِيت كرماً .

•

إسماعيلُ بن مَسْرورٍ عن جعفرِ بن محمد قال : إنَّ الله خَلقَ خلقاً من رحمتِه برَحمتِه لرحمتِه ، وهم الذين يقضُون الحوائج للناس ، فمن استطاعَ منكم أن يكونَ منهم فليكن .

---

١ لبده : اي لبد فرسه .

الجود مع الاقلال

قال الله تباركَ وتعالى فيما حكاه عن الأنصار : ويُؤثِرون على أنفُسِهِمْ ولو كان بِهِمْ خَصاصَةٌ ، ومَنْ يُوقَ شُحَّ نفسِه فأولئك هم المُفْلِحون .

•

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : أفضلُ العَطِيَّةِ ما كان من مُعْسِرٍ الى مُعسر .

وقال عليه الصلاة والسلام : أفضلُ العطيَّة جُهدُ المُقِلّ .

•

وقالت الحكماء : القليلُ من القليلِ أحمدُ من الكثيرِ من الكثير .

أخذ هذا المعنى حَبيبٌ فنظَمه في أبياتٍ كتب بها الى الحسن بن وَهْبٍ الكاتبِ وأهدى إليه قلماً :

قد بَعثنا إليك ، أكرَمك اللهُ ،
بشيءٍ ، فكن له ذا قَبولِ

لا تَقِسْه الى نَدى كَفِّك الغَمر ،
ولا نَيْلِك الكثيرِ الجزيلِ

واستجزِ قِلَّةَ الهديّة منّي ؛
إنّ جُهْدَ المُقِلِّ غيرُ قليلِ

•

وقالوا : جُهد المُقِلِّ أفضلُ من غِنى المُكْثِر .

•

وقال صَريعُ الغواني :

ليسَ السّماحُ لمُكثرٍ في قومه ، لكن لمُقْتِرِ قومِه المُتجمِّدِ

•

وقال أبو هُرَيرة : ما وَدِدْتُ أنّ أحداً ولدتني امُّه إلاّ أُمَّ جعفرِ بن أبي طالب ، تَبِعْتُه ذاتَ يومٍ وأنا جائعٌ ، فلما بلغَ البابَ التفتَ فرآني ، فقال لي : ادخُل ، فدخلت ؛ ففكّر حيناً فما وجدَ في بيتِه شيئاً إلاّ نِحْياً[1] كان فيه سَمْنٌ مُرّ ، فأنزله من رفٍّ لهم ، فشقَّه بين أيدينا ، فجَعلنا نلعَقُ ما كان فيه من السمنِ والرُّبِّ[2] ، وهو يقول :

ما كلَّفَ اللهُ نفساً فوقَ طاقَتِها ؛
ولا تَجودُ يَدٌ إلاّ بما تَجِدُ

•

---

١ النحي : الزق ، او ما كان للسمن خاصة .

٢ رب السمن : ثفله الأسود .

وقيل لبعض الحكماء : مَن أجودُ الناس ؟ قال : مَن جادَ من قِلّةٍ ، وصانَ وجه السائلِ عن المَذلّة .

•

وقال حمّادُ عَجرد :

أورِقْ بخيرٍ تُؤمَّلْ للجَزيلِ ، فما
تُرْجى الثّمارُ ، إذا لم يُورقِ العُودُ

بُثَّ النوالَ ولا تَمْنَعْكَ قِلّتُه ،
فكُلُّ ما سدَّ فقراً ، فهو مَحْمودُ

وللبَخيلِ على أمواله عِلَلٌ
زُرقُ العيونِ ، عليها أوْجُهٌ سُودُ

•

وقال حاتم :

أُضاحِكُ ضَيفي قبلَ إنزالِ رَحْلِه ،
ويُخْصِبُ عندي ، والمَحَلُّ جَديبُ

وما الخِصبُ للأضيافِ أن يَكثُرَ القِرى ،
ولكنّما وَجْهُ الكريمِ خَصيبُ

•

وقال عبد الملك بن مروان : ما كنت أُحِبُّ أنّ أحداً وَلدني من العربِ إلا عُروة بن الوَرْد لقوله :

أتهزأ مني أن سمنتَ ، وأن ترى
بجسمي مَسَّ الجوعِ ، والجوعُ جاهدُ

لأني امرؤٌ عافي إنائيَ شِرْكةٌ ،
وأنتَ امرؤٌ عافي إنائِك واحدُ

أُقسِّمُ جسمي في جُسومٍ كثيرةٍ ،
وأحسُو قَراحَ الماءِ ، والماءُ باردُ

•

ومن أحسنِ ما قيلَ في الجود مع الإقلالِ ، قولُ أبي تمام حبيب :

فلو لم يَكُن في كفِّه غيرُ روحه ،
لجادَ بها ، فليتَّقِ اللهَ سائلُهْ

•

ومن أفرط ما قيل في الجود ، قولُ بَكْر بن النطّاح :

أقولُ لمُرْتادِ النَّدى عند مالكٍ :
تمسَّكْ بجَدْوى مالكٍ وصِلاتِه

فتًى جعَل الدُّنيا وَقاءً لِعِرْضه ،
فأسدى بها المعروفَ قبلَ عِداتِه

فلو خَذلَت أمواله جودَ كفِّه ،
لقاسَم مَنْ يرجوه شَطْرَ حياتِه

وإن لم يَجُزْ في العُمر قَسْمٌ لمالكٍ ،
وجـازَ له أعطاهُ من حَسَناتِـه

وجاد بهـا من غيرِ كُفْرٍ بربّهِ ،
وأشركـه في صَوْمِـه وصَلاتـهِ

•

وقال آخر في هذا المعنى وأحسن :

ملأتُ يـدي من الدُّنيا مِراراً ،
وما طَمِعَ العَواذِلُ في اقتصـادي

ولا وَجَبت عليَّ زَكاةُ مـــالٍ ؛
وهل تَجِبُ الزَّكاةُ على الجَوادِ ؟

•

العطية قبل السؤال

قال سعيد بن العاصي : قبّح الله المعروفَ إن لم يكن ابتُدىء من غير مسألة ، فالمعروف عِوضٌ عن مسألة الرجل إذا بذلَ وجهَه ، فقلبه خائفٌ ، وفرائصُه ترتعدُ ، وجبينُه يَرْشَحُ ؛ لا يدري أيرجِعُ بنُجحِ الطلبِ ، أم بسوءِ المُنقَلَبِ ؛ قد انتُقع لونه ، وذهب دم وجهه . اللّهمّ فإن كانت الدنيا لها عندي حظّ فلا تجعَل لي حظّاً في الآخرة .

•

وقال أكثم بن صيْفيّ : كلُّ سؤالٍ وإن قلّ أكثرُ من كلّ نوالٍ وإن جلّ .

•

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأصحابه : من كانت له اليّ منكُم حاجةٌ فلْيَرْفَعْها في كتابٍ لأصونَ وجُوهَكُم عن المسألة .

•

حبيب قال :

عَطاؤك لا يَفْنَى ، ويَسْتغرِقُ المُنَى ،
وتَبقَى وجُوهُ الراغبين بمائِهـــا

وقال حبيب أيضاً :

ذُلُّ السؤالِ شَجاً في الحَلْقِ مُعْتَرِضُ ،
من دُونه شَرَقٌ من خَلْفِه جَرَضُ[1]

ما ماءُ كفِّك، إن جادت وإن بَخِلت ،
من ماءِ وَجْهي، إذا أفنيتُه ، عِوَضُ

إنّي بأيسرِ ما أدنيتَ مُنْبَسِطٌ ،
كما بأكثرِ ما أقْصَيْتَ مُنقبِضُ

•

وقالوا : مَنْ بَذلَ إليكَ وجهه فقد وفّاك حقَّ نِعْمتِك .

•

وقالوا : أكملُ الخِصالِ ثلاثٌ : وقارٌ بلا مَهابةٍ ، وسَماحٌ بلا طلبِ مُكافأةٍ ، وحِلمٌ بغير ذُلّ .

•

وقالوا : السخيّ من كان مَسْروراً ببَذْله ، متبرّعا بعَطائه ، لا يلتمسُ عَرَضَ دنيا فيَحْبَطَ عَمَلُه ، ولا طَلَبَ مكافأةٍ فيَسقُطَ شُكرُه ، ولا يكونُ مَثَلُه فيما أعطى مَثَلَ الصائد الذي يُلقي الحَبَّ للطائرِ ، لا يُريدُ نَفْعَها ولكن نَفْعَ نفسِه .

•

---

١ الجرض : الغصص ، أو الابتلاع بجهد .

نظرَ المنذرُ بن أبي سَبْرةَ الى أبي الأسود الدُّؤلي ، وعليه قميصٌ مَرقوعٌ ، فقال له : ما أَصْبرَكَ على هذا القميص ؟

فقال له : رُبَّ مَملوكٍ لا يُستطاعُ فِراقُه .

فبعث إليه بتَخْتٍ من ثيابٍ ؛ فقال أبو الأسود :

كساني ، ولم أَسْتَكْسِه ، فَحمِدْتُه ،
أَخٌ لكَ يُعطِيكَ الجزيلَ وناصرُ

وإنَّ أحقَّ الناسِ ، إن كنتَ شاكراً ،
بشُكرِكَ من أعطاكَ والعِرْضُ وافِرُ

•

وسأل معاويةُ صَعصعةَ بنَ صُوحان : ما الجُودُ ؟ فقال : التبرُّعُ بالمال ، والعطِيّةُ قبلَ السؤال .

•

ومن قولِنا في هذا المعنى :

كريمٌ على العِلاّتِ ، جَزْلٌ عَطاؤُه ،
يُنِيلُ ، وإن لم يُعتمَد لنَوالِ

وما الجُودُ مَنْ يُعطي إذا ما سألتَه ،
ولكنَّ مَنْ يُعطِي بغيرِ سُؤالِ

•

وقال بَشّار العُقَيلي[1] :

مالِكيّ يَنشَقُّ عن وجهِه الجَدْبُ ،
كما انشقّتِ الدُّجى عن ضيـاءِ

فتُجُوجُ السماءِ فَيضُ يَديه ،
لِقَريبٍ ونازحِ الدارِ نائي[2]

ليس يُعطيك للرَّجاءِ ولا الخَوْف ،
ولكن يَلَذُّ طَعمَ العَطـاءِ

لا ولا أن يُقالَ شيمتُه الجُودُ ،
ولكـنْ طَبائـعُ الآبـاءِ

•

وقال آخر :

إنّ ، بـين السُّؤالِ والإعتذارِ ،
خُطّةٌ صَعْبـةٌ على الأحرارِ

•

وقال حبيب :

لئِن جَحَدْتُك ما أوليتَ من نِعَمٍ ،
إنّـي لفي اللُّؤمِ أمضى منكَ في الكَرَمِ

---

١ قال بشار هذه الأبيات في عقبة بن سلم ونسبه فيها الى مالك احد اجداده .

٢ النجوج : شدة سيلان المطر .

أنسَى ابتسامُك ، والألوانُ كاسفةٌ ،
تَبسُّمَ الصُّبْحِ في داجٍ من الظُّلَمِ

رَددتَ رَوْنقَ وجهي في صحيفتِه ،
ردَّ الصِّقال بَهاءَ الصارمِ الخَذِمِ[1]

وما أُبالي ، وخيرُ القوْلِ أصدَقُه ،
حَقنتَ لي ماء وَجْهي ، أو حَقنتَ دَمي

•

---

١ الخذم : القاطع .

استنجاح الحوائج

كانوا يستفتحون حوائجَهم بركعتين ، يقولون فيهما : اللّهمّ بك أستنجِحُ ، وباسمِك أستَفتِحُ ، وبمحمدٍ نبيّك إليك أتوجّه ؛ اللّهمّ ذلّل لي صُعوبتَه ، وسهّل لي حُزُونتَه ، وارزُقني من الخيرِ أكثرَ مما أرجو ، واصرِف عنّي من الشرّ أكثرَ مما أخافُ .

•

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : استعينوا على حوائجكم بالكِتمانِ لها ، فإن كلّ ذي نِعْمةٍ محسود .

•

وقال خالد بن صَفوانَ : لا تَطْلُبوا الحوائجَ في غيرِ حينها ، ولا تطلُبوها من غيرِ أهلِها ، فإنّ الحوائجَ تُطْلَبُ بالرّجاءِ وتُدْرَكُ بالقضاءِ[1] .

---

١ بالقضاء : اي باتمامها ، والوفاء بها .

وقال : مِفْتاحُ نُجْحِ الحاجةِ الصبرُ على طولِ المدّةِ ، ومِغْلاقُها اعتراضُ الكَسَلِ دونها .

•

قال الشاعر :

إني رأيتُ ، وفي الأيامِ تَجربةٌ ،
للصَّبرِ عاقبةً محمودةَ الأثَرِ

وقلَّ من جَدَّ في أمرٍ يُحاوله ،
فاستصحَبَ الصَّبرَ ، إلا فازَ بالظَّفرِ

•

ومن أمثالِ العربِ في هذا : مَن أدْمَنَ قَرْعَ البابِ يوشك أن يُفتحَ له .

أخَذَ الشاعر هذا المعنى فقال :

لا تيأسنَّ ، وإن طالتْ مُطالبةٌ ،
إذا تضايق أمرٌ أن تَرى فَرجا

أخْلِق بذي الصَّبر أن يحظى بحاجتِه ،
ومُدْمنِ القَرْعِ للأبوابِ أن يَلِجا

•

وقال خالد بنُ صَفوان : فَوْتُ الحاجةِ خيرٌ من طَلَبِها إلى غيرِ أهلِها ، وأشدُّ من المُصيبةِ سوءُ الخَلَفِ منها .

•

وقالوا : صاحبُ الحاجة مَبْهوتٌ ، وطَلَبُ الحوائجِ كلُّها تَعْزيرٌ[1] .

•

وقالتِ الحكماء : لا تطلبْ حاجتَك من كذّابٍ ، فإنه يُقرّبها بالقولِ ، ويُبعدُها بالفعلِ ؛ ولا من أحمقَ فإنّه يريدُ نفعَك فيضرُّك ؛ ولا من رجلٍ له أُكلةٌ من جهةِ رجلٍ ، فإنه لا يؤثر حاجَتك على أُكْلته .

•

وقال دِعْبل بن عليّ الخُزاعيّ :

جِئْتُك مُسترفداً بلا سَببِ إليك ، إلا بحُرْمةِ الأدبِ

فاقضِ ذِمامي ، فإنّني رجلٌ غيرُ مُلِحٍّ عليك في الطّلبِ

•

وقال سَبيب بن سَبْبة : إني لأعرفُ أمراً لا يتلاقى بـه اثنان إلا وَجبَ النُّجْحُ بينهما ؛ قيل له : وما ذاك ؟ قال : العقلُ ، فإن العاقلَ لا يَسألُ ما لا يُمكنُ ، ولا يَرُدُّ عما يُمكن .

•

---

١ تعزير : تشديد .

وقال الشاعر :

أتيتُك لا أُدلي بقُربَى ولا يـدٍ
إليـك ، سِوى أنّي بجودِك واثقُ

فإن تُولِني عُرفاً أكُن لك شاكراً؛
وإن قلتَ لي عُذراً أقُل أنت صادقُ

•

وقال الحَسَنُ بن هانىء :

فإن تُولِني منك الجميـلَ فأهلُه ،
وإلاّ فإنّي عـاذِرٌ وشَكُورُ

•

وقال آخر :

لعَمْرُك مـا أخلقْتُ وجهاً بذَلْتُه
إليـكَ ، ولا عرّضتُهُ للمَعـايرِ

فتىً وَفَرتْ أيـدي المكارمِ عِرضَه
عليه ، وخلّتْ ماله غـيرَ وافرِ[1]

•

ودخل محمدُ بن واسع على بعض الأمراءِ ، فقال : أتيتُكَ

---

١ وفرت عرضه : صانته .

في حاجةٍ فإن شئتَ قضيتَها وكُنتَا كريمَين ، وإن شئت لم تَقْضِها وكنتَا لئيمَين .

أراد إن قضيتَها كنتَ أنتَ كريماً بقضائِها ، وكنتُ أنا كريماً بسؤالك إياها ، لأني وضعتُ الطَّلِبة في مَوضِعها . فإن لم تقضِها كنتَ أنت لئيماً بمنعِك ، وكنتُ أنا لئيماً بسُوءِ اختياري لك .

وسرق حبيبٌ هذا المعنى فقال :

عَيّاشُ ! إنك للئيمُ ، وإنني ، إذ صِرتَ مَوضعَ مَطلبي، للئيمُ

•

ودخل سَوّارٌ القاضي على عبدِ الله بن طاهرٍ صاحبِ خُراسان فقال : أصلح اللهُ الأمير :

لنا حاجةٌ ، والعُذرُ فيها مُقدَّمٌ ،
خَفيفٌ مُعنَّاها ، مُضاعفةُ الأجرِ

فإن تَقضِها ، فالحمدُ لله وحدَه ،
وإن عاقَ مَقدورٌ ، ففي أوسعِ العُذرِ

قال له : ما حاجتُك أبا عبد الله ؟

قال : كِتابٌ لي إن رأى الأميرُ ، أكرمه الله ، أن

يُنفِذَه في خاصَّتِه ، كتَبه الى موسى بنِ عبد الملك في تَعْجيل أرزاقي .

قال : أوَغيرَ ذلك أبا عبد الله نُعجِّلها لك من مالِنا ؟ وإذا وَدِدتَ كنتَ مُخيَّراً بينَ أن تأخُذَ أو تَرُدّ .

فأنشد سَوّارٌ يقول :

فبابُك أيمنُ أبوابِهم ، ودارُكَ مأهولةٌ عامِرَهْ
وكفُّك، حين ترى المُجتدينَ ، أندى من الليلةِ الماطِرهْ
وكلبُك آنَسُ بالمُعتفين من الأمّ بابنتِها الزائرهْ[1]

•

ودخلَ أبو حازمٍ الأعرجُ على بعضِ أهل السلطان ، فقال : أتيتُك في حاجةٍ رفعتُها الى الله قبلك ، فإن يأذنِ الله في قضائِها قضيتَها وحَمِدْناك ، وإن لم يأذن في قضائِها لم تَقضِها وعَذَرناك .

•

وفي بعض الحديث : اطلبوا الحوائجَ عند حِسانِ الوُجوه. أخذه الطائيّ فنظَمه في شعره فقال :

قد تأوّلتُ فيكَ قولَ رسول الله ، إذ قال مُفْصِحاً إفصاحا:

---

١ هذا الشعر لنصيب .

إنْ طلبتُم حوائجاً عند قَوْمٍ ، فتنقَّوْا لها الوُجوهَ الصِّباحا

فلعَمْري ، لقد تَنقَّيتُ وجْهاً ما به خابَ من أراد النَّجاحا

•

قال المنصور لرجل دخل عليه : سَلْ حاجتَك .

قال : يُبقيك الله يا أميرَ المؤمنين .

قال : سَلْ حاجتك ، فإنك لستَ تَقْدِر على مثل هذا المَقامِ في كل حين .

قال : والله يا أمير المؤمنين ما أَسْتَقْصِرُ عُمرك ، ولا أخافُ بُخلَكَ ، وإنّ عَطاءَكَ لشرفٌ ، وإنّ سؤالك لزَيْنٌ ، وما بامرىءٍ بذَلَ إليك وجهَه نَقْصٌ ولا شَيْن .

فوَصله وأحسن إليه .

•

استنجاز المواعيد

من أمثالهم في هذا : أنجَزَ حُرّ ما وعَد .

•

وقالوا : وَعدُ الكريم نَقْدٌ ، ووعْدُ اللئيمِ تَسْويفٌ .

•

وقال الزُّهري : حقيقٌ على من أورقَ بوَعدٍ أن يُثمِر بفِعْلٍ .

•

وقال المُغيرةُ : من أخَّرَ حاجةً فقد ضَمِنها .

•

وقال المُوبَذان الفارسيّ : الوَعدُ السَّحابةُ ، والإنجازُ المطرُ .

•

وقال غيرهُ : المواعيدُ رؤوسُ الحوائجِ ، والإنجازُ أبدانُها .

•

وقال عبدالله بن عمر : خُلفُ الوعدِ ثُلثُ النِّفاقِ ، وصِدْقُ الوعدِ ثلثُ الايمانِ ، وما ظَنُّك بشيء جعَله الله

تعالى مِدْحةً في كتابِه ، وفخراً لأنبيائه ، فقال تعالى : واذكرْ في الكِتابِ إسْماعيلَ إنّهُ كانَ صادِقَ الوَعْدِ .

•

وذكر جَبّارُ بن سلْمى عامرَ بن الطُّفَيل ، فقال : كان واللهِ إذا وَعدَ الخيرَ وفى ، وإذا أوعـــدَ بالشرّ أخلفَ ، وهو القائل :

ولا يَرهَبُ ابنُ العمّ ، ما عِشتُ ، صولتي ،
ويأمنُ مِنّي صوْلةَ المُتهـــدّدِ

وإنّي ، وإن أوعَدتُه ، أو وَعدتُه ،
لَيكذِبُ إيعادي ويَصدُقُ موْعدي

•

وقال ابن أبي حازم :

إذا قلتَ في شيء : « نَعم » فأتِمّه ،
فإنّ نَعم دَينٌ على الحُرّ واجبُ

وإلا فقُل : « لا » تستَرِحْ وتُرِح بها ،
لئلا يقولَ النـــاسُ إنك كاذبُ

•

ولو لم يكن في خُلفِ الوعدِ إلا قولُ الله عز وجل : يا

أيُّها الذينَ آمَنوا لِمَ تَقولونَ ما لا تَفْعَلونَ . كَبُرَ مقْتا عِنْدَ اللهِ أنْ تَقولوا ما لا تَفْعَلونَ ؛ لكفى .

•

وقال عُمرُ بن الحارثِ : كانوا يَفعلون ولا يَقولون ، ثم صاروا يَقولون ويَفعلون ، ثم صاروا يقولون ولا يفعلون ، ثم صاروا لا يقولون ولا يفعلون : فزعم أنهم ضنُّوا بالكَذِبِ فضلًا عن الصِّدقِ .

•

وفي هذا المعنى يقولُ الحسن بن هانىء :

قال لي : تَرضى بوعدٍ كاذبٍ ؟
قلتُ : إن لم يكُ سَحْمٌ فنَفَشْ[1]

•

ومثله قول عبّاس بن الأحنف ، ويقال إنه لمُسلم بن الوليد ، صريعِ الغواني :

ما ضَرَّ مَن شَغَلَ الفؤادَ ببُخلِه ،
لو كان علَّلني بوعدٍ كاذبِ

•

---

١ النفش : الصوف المنفوش .

صبراً عليك ، فما أرى لي حيلةً ،
إلاّ التمسُّكَ بالرَّجاءِ الخائبِ

سأموتُ من كَمَدٍ ، وتَبقى حاجتي ،
فيما لديك ، وما لها من طالبِ

•

قال عبدُ الرحمن ابن أُمِّ الحَكَم لعبد الملك بنِ مروانَ في مواعيدَ وَعَدها إياه فمَطله بها : نحن إلى الفِعْلِ أحوجُ منا الى القول ، وأنت بالإنجازِ أولى منك بالمَطلِ ، واعلم أنك لا تستحِقُّ الشكرَ إلا بإنجازِك الوعد واستِتمامِك المعروف .

•

القاسمُ بنُ معْن المَسعوديّ قال : قلتُ لعيسى بن موسى : أيها الأميرُ ، ما انتفعتُ بك مذ عرفتُك ، ولا أوصلتَ لي خيراً مذ صَحِبتك .

قال : ألم أكلِّم لك أميرَ المؤمنين في كذا وأسأله لك كذا؟

قال : قلت : بلى ، فهل استنجزتَ ما وَعدتَ ، واستَتممت ما بدأت ؟

قال : حال من دون ذلك أمورٌ قاطعةٌ ، وأحوالٌ عاذرة .

قلت : أيها الأمير ، فما زِدْتَ على أن نَبَّهتَ العجز من رَقْدَتِه ، وأثرتَ الحُزنَ من رَبْضَته ، إنَّ الوعدَ إذا لم

يشْفَعُه إنجازٌ يُحَقِّقُه ، كان كلفظٍ لا مَعنى له ، وجِسْمٍ لا رُوحَ فيه .

•

وقال عبدُ الصمد بن الفضل الرَّقاشي لخالد بن دِينَم ، عامل الرَّي :

أخالدُ ! إنَّ الرَّيَّ قد أجحفتْ بنا ،
وضاق علينا رَحبُها ومَعاشُها

وقد أطمعتْنا منك يوماً سحابةٌ
أضاءت لنا بَرْقاً ، وأبطا رشاشُها

فلا غَيْمُها يصحو فيُيْئِسَ طامعاً ،
ولا ماؤها يأتي فتُروى عِطاشُها[1]

•

وقال سعيدُ بن سلْم : وعد أبي بشّاراً العُقيليّ حين مدحه بالقصيدةِ التي يقول فيها :

صَدَّت بخدٍّ وجَلَتْ عن خَدٍّ ، ثم انثنَت كالنَّفَسِ المُرتدّ

فكتب إليه بشّار بالغد :

ما زال ما منَّيتني من همّي ، والوعدُ غمٌّ فأرِحْ من غمّي

إن لم تُرِدْ حمْدي فراقِبْ ذمّي

---

١ قوله : ييئس خطأ ، والصواب : يوئس ، لان الياء الساكنة تقلب واواً بعد الضمة .

فقال له أبي : يا أبا مَعاذ ، هلاّ استنجحتَ الحاجةَ بدونِ الوعيد؟ فإذ لم تفعل فتربَّص ثلاثاً وثلاثاً ، فإني والله ما رضيتُ بالوعدِ حتى سمعتُ الأبرشَ الكلبيّ يقول لهشام : يا أميرَ المؤمنين ، لا تَصنعْ إليَّ معروفاً حتى تَعِدَني ، فإنه لم يأتني منك سَيْبٌ على غيرِ وَعْدٍ إلا هان علي قَدْرُه ، وقلّ منّي شُكرُه ؛ قال له هشام : لئن قلتَ ذلك لقد قاله سيّدُ أهلك أبو مُسلم الخَوْلانيّ : إنّ أوقعَ المعروفِ في القلوبِ ، وأبرَدَه على الأكبادِ ، معروفٌ مُنتظَرٌ ، بوعدٍ لا يُكدّرُه المَطْلُ .

•

وكان يحيى بنُ خالد بن برْمك لا يقْضي حاجةً إلا بوعد ، ويقول : من لم يَبِتْ على سُرورِ الوَعدِ لم يجِد للصَّنيعةِ طَعْماً .

•

وقالوا : الخُلْفُ ألأمُ من البُخلِ ، لأنه من لم يفعلِ المعروفَ لزِمَه ذمُّ اللؤمِ وحدَه ، ومَن وَعدَ وأخلَفَ لزِمَه ثلاثُ مذمّاتٍ : ذمُّ اللؤمِ ، وذمُّ الخُلفِ ، وذمُّ الكذبِ .

•

قال زيادٌ الأعجم :

لله دَرُّكَ مِن فتًى ، لو كنتَ تفعلُ ما تَقولْ
لا خيرَ في كَذِبِ الجواد ، وحبَّذا صِدْقُ البخيلْ

•

استبطأ حبيبٌ الطائيُّ الحسنَ بنَ وهبٍ في عِدَة وعدَها إياه ، فكتب إليه أبياتاً يستعجِلُه بها ، فبعثَ إليه بألفِ درهم، وكتب إليه :

أعجَلْتَنا فأتاكَ عاجلُ بِرِّنا ... قُلاًّ ، ولو أخَّرتَه لم يَقْلِلِ

فخذ القليل وكن كمن لم يسألِ ، ... ونكونُ نحن كأننا لم نفعلِ

•

وقال عبد الله بن مالك الخزاعي : دخلتُ على أميرِ المؤمنين المهديّ وعنده ابنُ دأب وهو يُنشد قولَ الشَّماخ :

وأشعثَ قد قدَّ السَّفارُ قميصَه ، ... يَجُرُّ شِواءً بالعصا ، غيرَ مُنضَجِ [1]

دعوتُ إلى ما نابني ، فأجابني ... كريمٌ من الفِتْيان ، غيرُ مُزلَّج [2]

فتًى يملأ الشِّيزى ، ويُرْوي سِنانَه ، ... ويضْرِب في رأس الكميِّ المُدجَّج [3]

---

١ الاشعث : المغبر الشعر المتلبده . السفار : السفر .

٢ المزلج : البخيل ، والناقص المروءة .

٣ الشيزى : اراد بها الجفنة المصنوعة من الخشب الاسود المسمى بالشيزى ، الكمي : المتكمي ، المتستر بالسلاح . المدجج : الكامل السلاح .

فتًى ليس بالراضي بأدنى مَعيشةٍ ،
ولا في بُيوت الحيّ بالمُتولِّج[1]

فرفع رأسه إليّ المهديُّ وقال : هذه صِفَتك أبا العبّاس .
فقلت : بل نِلْتُها يا أمير المؤمنين .
فضحك لي وقال : هل تُنْشِدُ من الشّعر شيئاً ؟
قلتُ : نعم يا أميرَ المؤمنين .
قال : فأنشدني .
فأنشدته قولَ السَّموأل :

إذا المرءُ لم يَدْنَس من اللؤم عِرْضُه ،
فكُلُّ رداءٍ يرْتديهِ جَميلُ

وإنْ هو لم يحْمِل على النفس ضَيْمَها ،
فليسَ إلى حُسْنِ الثّناءِ سَبيلُ

إذا المرءُ أعْيَته المُروءةُ يافعاً ،
فمَطْلبُها ، كَهْلاً ، عليه ثقيلُ

تُعيِّرنا أنّا قليلٌ عديدُنا
فقلْتُ لها إنّ الكِرامَ قليلُ

وما ضَرَّنا أنّا قليلٌ ، وجارُنا
عَزيز ، وجارُ الأكْثرينَ ذَليلُ

---

١ المتولج : الداخل .

ونحنُ أُناسٌ لا نَرى القتلَ سُبَّةً،
إذا ما رأتْه عامرٌ وسَلولُ

يُقرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنا لنا،
وتَكْرَهُهُ آجالُهُم فتَطولُ

وما ماتَ منّا سيِّدٌ حَتْفَ أنفِه،
ولا طُلَّ منّا، حيثُ كان، قَتيلُ

تَسيلُ، على حدِّ السيوفِ، نفوسُنا،
وليست، على غيرِ السّيوفِ، تَسيلُ

ونُنْكرُ، إن شِئْنا، على الناسِ قولَهم،
ولا يُنكرون القولَ حينَ نقولُ

فنحنُ كماءِ المُزنِ ما في نِصابنا
كَهامٌ، ولا فينا يُعَدّ بخيلُ[1]

وأسيافُنا في كلِّ شَرْقٍ ومَغربٍ،
بها من قِراعِ الدّارعين فُلولُ

فقال: أحسنت! اجلس، بهذا بلغتم، سَلْ حاجتك.

قلت: يا أمير المؤمنين، تكتب لي في العطاء ثلاثين رجلًا من أهلي.

---

١ الكهام: الكليل الحد.

قال : نعم ، فرضٌ عليَّ إذا وعدتُ .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنك متمكّن من القُدرة وليس دونَك حاجزٌ عن الفعل ، فما معنى العِدَة ؟

فنظر الى ابن دأبٍ كأنه يريد منه كلاماً في فضلِ الموعِد ؛ فقال ابنُ دأب :

حلاوةُ الفِعل بوعدٍ يُنجَزُ ، لا خيرَ في العُرْفِ كنهبٍ يُنهزُ

فضحك المهديّ وقال :

الفِعْلُ أحسنُ ما يكونُ ، إذا تقدَّمهُ ضَمانُ

•

وقال المُهلَّب بن أبي صُفْرة لبَنيه : يا بَنيَّ ، إذا غدا عليكم الرجلُ وراحَ مُسلِّماً فكفى بذلك تَقاضياً .

•

وقال الشاعر :

أروحُ بتَسْليمي عليك ، واغتَدي ،
وحَسْبُك بالتَّسليمِ مني تَقاضِيا

•

وقال آخر :

كفاكَ مُخبِّراً وَجْهي بشَاني ،
وَحَسْبُكَ أن أراكَ وأن تراني

وما ظَنّي بمن يَعْنيه أمري،
ويَعْلمُ حاجتي، ويرى مَكاني

•

كتب العتّابي الى بعض أهل السلطان: أما بعدُ، فإنّ سحائبَ وَعْدِك قد أبرقَت، فليكن وَبْلُها سالماً من عِلَلِ المَطلِ، والسلام.

•

وكتب الجاحظُ إلى رجلٍ وَعده: أما بعدُ، فإن شجرة وَعْدِك قد أورقَت، فليكُن ثمرُها سالماً من جوائح المطلِ، والسلام.

•

ووعد عبدُ الله بن طاهر دِعْبلًا بغُلامٍ، فلما طالَ عليه تصدّى له يوماً، وقد ركِبَ إلى بابِ الخاصّةِ، فلما رآه قال: أسأتَ الاقتضاءَ، وجَهِلتَ المأخذَ، ولم تُحسِنِ النظرَ، ونحن أولى بالفضلِ، فلك الغلامُ والدابّةُ حينما ننزلُ إن شاء اللهُ تعالى. فأخذ دِعْبل بعِنانه وأنشده:

يا جَوادَ اللسانِ من غيرِ فِعْلٍ،
ليتَ في راحَتَيْك جودَ اللسانِ

عَينَ مِهْرانَ قد لَطَمتَ مِراراً،
فاتَّقي ذا الجَلالِ في مِهْرانِ[1]

عُرْتَ عَيْناً فَدَعْ لمِهْران عيْناً،
لا تَدَعْه يَطوفُ في العِمْيانِ

قال : فنزَل له عن دابّتِه ، وأمرَ له بالغلام .

•

وسأل خَلَفُ بن خَليفة أبانَ بن الوليدِ جاريةً فوعَده بها، وأبطأت عليه ، فكتب إليه :

أرى حاجَتي عند الأمير ، كأنّها
تَهُمُّ زماناً عنده بمُقامِ

وأَحْصَرُ عن إذكاره ، إن لقيتُه ،
وصِدْقُ الحياء مُلْجِمٌ بلجامِ

أُراها إذا كان النهارُ نَسيئةً ،
وبالليل تُقضى عند كلِّ مَنامِ

فيا رَبِّ أخرجْها ، فإنك مخرِجٌ
مِنَ المَيْت حيّاً ، مُفصِحاً بكلامِ

---

١ في قوله : عين مهران قد لطمت ، اشارة الى المثل القائل : هو يلطم عين مهران ، اي يكذب .

فتعلَمَ ما شُكْري ، إذا ما قَضيتَها ،
وكيف صَلاتي عندها وصِيامي

•

وكتب أبو العتاهية إلى رجلٍ وعَده بعِدَة ومَطلَه بها :

لا جعلَ الله لي إليك ، ولا عندك ، ما عِشْتُ ، حاجةً أبدا
ما جئتُ في حاجةٍ أُسَرُّ بها إلا تثاقلتَ ثم قلتَ : غدا

•

وكتب دِعْبل إلى رجلٍ وعَده وعداً وأخلفَه :

أحسِبتَ أرضَ الله ضَيِّقةً عنّي ، فأرضُ الله لم تَضِقِ
وجعلتَني فَقْعاً بقَرقَرة ، فوَطِئْتَني وَطْئاً على حَنَقِ[1]
فإذا سألتُك حاجةً أبداً ، فاضرِب لها قُفلاً على غَلَقِ
وأَعِدَّ لي غُلاًّ وجامعةً ، فاجمَعْ يديّ بها إلى عُنُقي[2]
ما أطولَ الدُّنيا وأوسَعها ، وأدَلَّني بمَسالِكِ الطُّرُقِ

•

---

١ الفقع : البيضاء الرخوة من الكمأة . القرقرة : الأرض المطمئنة اللينة . اخذ قوله هذا من المثل القائل : هو اذل من فقع بقرقرة .

٢ الجامعة : الغل ، لأنها تجمع اليدين الى العنق .

ومن قولنا في رجلٍ كتبَ إليّ بِعِدَّةٍ في صحيفةٍ ومطَلني بها :

صَحيفةٌ طابَعُها اللُّومُ ، عُنوانُها ، بالجَهلِ ، مختومُ
يُهْدَى لها ، والخُلفُ في طَيِّها ، والمَطلُ والتَّسْويفُ واللُّومُ
مِن وَجهِهِ نَحْسٌ ، ومن قُربِهِ رِجْسٌ ، ومن عِرفانِهِ شومُ
لا تَهتَضِمْ ، إن بِتَّ ضيفاً له ، فخُبزُه في الجَوْفِ هاضومُ[1]
تَكليمُه الأَلحاظُ من رِقَّةٍ ، فَهْوَ ، بلَحْظِ العينِ ، مَكلومُ
لا تأتدِمْ شيئاً على أكلِه ، فإنه ، بالجُوعِ ، مَأدومُ

•

وقلت فيه :

صحيفةٌ كُتِبت ليتٌ بها وعسى ،
عُنوانُها راحةُ الرَّاجي إذا يَئِسا

وَعْدٌ له هاجسٌ في القَلْبِ ، قد بَرِمَت
أحشاءُ صَدْري به من طولِ ما هَجَسا

يَراعةٌ غَرَّني منها وَميضُ سَنًى ،
حتى مَددتُ إليها الكفَّ مُقتَبِسا

---

١ الهاضوم : كل دواء يساعد على هضم الطعام .

فصادفتْ حَجَراً لو كنتَ تضْربُه ،
من لؤمه ، بِعَصا موسى لمَا انبَجسا

كأنما صيغ من بُخلٍ ومن كَذِبٍ ،
فكان ذاكَ له روحاً وذا نَفَسا

•

وقلت فيه :

رَجـــاءٌ دونَ أقرَبِهِ السّحابُ ،
ووَعْدٌ مثلُ ما لَمَعَ السّرابُ

وتَسْويفٌ يَكِلُّ الصبرُ عنه ،
ومَطْلٌ مـــا يقومُ له حِسابُ

وأيامٌ خَلَتْ من كلِّ خَيرٍ ،
ودنيـا قد توزّعهـا الكِلابُ

•

لطيف الاستمناح

قالَ الحكماء : لطيفُ الاستمناحِ سببُ النجاح ، والأنفسُ ربما انطلقت وانشرحت بلطيفِ السؤال ، وانقبضت وامتنعت بجفاءِ السائل ؛ كما قال الشاعر :

وجفوتني ، فقطعتُ عنك فوائدي ،
كالدرِّ يقطعُه جفاءُ الحالبِ

•

وقال العتّابي : إن طلبتَ حاجةً الى ذي سلطانٍ فأجمِل في الطلب إليه . وإياكَ والالحاحَ عليه ، فإنّ إلحاحَك يكلِمُ عِرضَك ، ويُريقُ ماءَ وجهِك ، فلا تأخذ منه عِوَضاً لما يأخذُ منك ؛ ولعلّ الإلحاحَ يجمعُ عليك إخلاقَ الوجه وحِرمانَ النجاح ، فإنه ربما ملّ المطلوبُ إليه حتى يستخفّ بالطالب .

•

وقال الحسنُ بن هانىء :

تأنَّ مواعيدَ الكرامِ ، فربما
حملتَ من الالحاحِ سَمْحاً على بُخلِ

•

وقال آخر :

إن كنتَ طالبَ حاجةٍ ، فتَجَمَّلِ ،
فيها بأحسنِ ما طلبتَ ، وأَجْمِلِ

إنَّ الكريمَ ، أخا المُروءة والنُّهى ،
مَن ليسَ في حاجاتِه بمُثَقَّلِ

•

المدائنيّ قال : قَدِمَ قومٌ من بني أُمية على عبد الملك بن مَروان ، فقالوا : يا أميرَ المؤمنين ، نحنُ ممّن تَعرِفُ ، وحقُّنا ما لا يُنْكَرُ ، وجِئْناك من بعيدٍ ، ونَمُتُّ بقريبٍ ، ومهما تُعطِنا فنحنُ أهلُه .

•

دخل عبد الملك بن صالح على الرشيد فقال : أسألك بالقرابةِ والخاصّةِ ، أم بالخِلافةِ والعامّة ؟

قال : بل بالقَرابةِ والخاصّة .

قال : يداك يا أميرَ المؤمنين بالعطيّةِ أطلقُ من لساني بالمسألة .

فأعطاه وأجزلَ له .

•

ودخل أبو الرَّيّان على عبدِ الملك بن مَروان ، وكان عنده

أثيراً ، فرآه خائراً ، فقال : يا أبا الرَّيّان ، ما لك خائراً ؟

قال : أشكو إليك الشَّرَفَ يا أميرَ المؤمنين .

قال : وكيف ذلك ؟

قال : نُسألُ ما لا نَقدِرُ عليه ونَعتذِرُ فلا نُعذَر .

قال عبد الملك : ما أحسنَ ما استمنحتَ واعْتَرَرْتَ[1] يا أبا الرَّيّان ! أعطوه كذا وكذا .

•

العتّابي قال :

كتب الشَّعْبيُّ الى الحجّاجِ يسأله حاجةً ، فاعتلَّ عليه ، فكتب إليه الشَّعْبي : والله لاعذرتُك وأنتَ والي العراقَين ، وابنُ عظيمِ القَريتين ؛ فقضى حاجَته . وكان جَدُّ الحجّاج لأمّه عُروة بن مسعودٍ الثَّقفيّ .

•

العُتْبيّ قال :

قدم عبدُ العزيز بنُ زُرارةَ الكِلابيُّ على أميرِ المؤمنين مُعاوية ، فقال : إني لم أزل أهُزُّ ذوائبَ الرِّحالِ إليك ، فلم أجِد مُعوَّلاً إلا عليك ، أمتطي الليلَ بعد النهارِ ، وأسِمُ المجاهلَ بالآثار ، يقودني إليك أملٌ ، وتَسوقني بَلوى ، والمُجتهِد

---

١ اعترت : طلبت المعروف .

يُعذَرُ ، وإذا بلغتُك فَقَطْني[1] ؛ فقال : احطُط عن راحِلتك رَحلها .

•

ودخل كُرَيز بن زُفَر بن الحارث على يزيدَ بن المُهلَّب فقال : أصلَح الله الأمير ، أنت أعظمُ من أن يُستعان بكَ ويُستعانَ عليك ، ولستَ تفعلُ من الخيرِ شيئاً إلاّ وهو يَصْغُر عنك وأنت أكبرُ منه ، وليس العَجبُ أن تَفعلَ ، ولكن العَجبَ أن لا تفعَل .

قال : سَلْ حاجتك .

قال : قد حَملتُ عن عَشيرتي عَشْرَ دِيات .

قال : قد أمرتُ لك بها وشَفعتُها بمثلها .

•

العُتبيّ عن أبيه قال :

أتى رجلٌ إلى حاتم الطائي فقال : إنها وقعت بيني وبين قومي دِياتٌ فاحتملتُها في مالي وأملي ، فعَدِمتُ مالي وكنتَ أملي ، فإن تحمِلْها عني فربّ همٍّ فرَّجتَه ، وَغمٍّ كَفَيتَه ، ودَينٍ قضيتَه ؛ وإن حال دونَ ذلك حائلٌ لم أذُمَّ يومَك ، ولم أيأسْ من غدِك . فحَملها عنه .

•

---

١ قطني : حسبي .

المدائنيّ قال :

سأل رجلٌ خالداً القَسْريَّ حاجةً ، فاعتلَّ عليه ، فقال له : لقد سألتُ الأمير من غيرِ حاجةٍ .

قال : وما دعاك إلى ذلك ؟

قال : رأيتُك تُحِبُّ مَن لك عنده حُسنُ بلاءٍ ، فأردتُ أن أتعلَّقَ منك بحَبْل مَودّة .

فوصلَه وحباه وأدنى مكانَه .

•

الأصمعيّ قال :

دخل أبو بكرٍ الهَجَريُّ على المَنصورِ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، نغَض فَمي[1] ، وأنتم أهلَ البيتِ بركةٌ ، فلو أذِنتَ لي فقبّلتُ رأسَك .

قال : اختر منها ومن الجائزة .

فقال : يا أمير المؤمنين أهونُ عليّ من ذَهابِ دِرْهمٍ من الجائزةِ ألاّ تبقى حاكّةٌ[2] في فَمي .

فضَحك المنصور وأمر له بجائزة .

•

---

١ نغض فمي : اي قلقت اسناني .

٢ الحاكة : السن .

وذكروا أن جاراً لابي دُلف ببغدادَ لَزِمه كبيرُ دينٍ فادحٍ حتى احتاجَ إلى بَيْعِ دارِه ، فساوموه بها ، فسألهم ألفي دينار ؛ فقالوا له : إن دارَك تُساوي خمسمائة ؛ قال : وجواري من أبي دُلف بألف وخمسمائة . فبلغ أبا دُلف ، فأمر بقَضاءِ دَينه ، وقال له : لا تَبِع دارَك ولا تَنتقِل من جوارِنا .

•

ووقَفَت امرأةٌ على قَيس بن سعد بن عُبادة ، فقالت : أشكو إليك قِلَّة الجِرْذانِ ؛ قال : ما أحسن هذه الكناية ! املأوا لها بيتها خبزاً ولحماً وسمناً .

•

ابراهيم بن أحمد عن الشَّيباني قال :

كان أبو جعفرٍ المنصورُ أيام بني أمية إذا دخل البصرة دخل مُستتراً ، فكان يجلِسُ في حَلقةِ أزْهرَ السَّمانِ المُحدِّثِ ، فلمّا أفضَت الخلافةُ إليه ، قدِمَ عليه أزهرُ ، فرحَّبَ به وقَرَّبه ، وقال له : ما حاجتُك يا أزهر ؟

قال : داري مُتهدِّمةٌ ، وعليَّ أربعة آلاف درهم ، وأريد أن يَبني محمدٌ ابني بعيالِه .

فوصله باثني عشر ألفاً ، وقال : قد قَضينا حاجتَك يا أزهرُ ، فلا تأتِنا طالباً .

فأخذها وارتحل . فلما كان بعد سنةٍ أتاه ، فلما رآه أبو جعفر ، قال : ما جاءَ بك يا أزهر ؟

قال : جئتك مُسلّماً .

قال : إنه يقع في خَلَدِ أمير المؤمنين أنّك جئتَ طالباً .

قال : ما جئتُ إلا مسلّماً .

قال : قد أمرنا لك باثني عشرَ ألفاً ، واذهب فلا تأتِنا طالباً ولا مُسلّماً .

فأخذها ومضى . فلما كان بعد سنة أتاه ، فقال : ما جاءَ بك يا أزهر ؟

قال : أتيتُ عائداً .

قال : إنه يقع في خَلَدِ أمير المؤمنين أنك جئتَ طالباً .

قال : ما جئتُ إلاّ عائداً .

قال : قد أمرنا لك باثني عشرَ ألفاً ، واذهب فلا تأتِنا لا طالباً ولا مُسلّماً ولا عائداً .

فأخذها وانصرف . فلما مضت السنة أقبل ، فقال له : ما جاء بك يا أزهر ؟

قال : دُعاء كنت أسمعُك تدعو به يا أميرَ المؤمنين ، جئتُ لأكتُبَه .

فضحك أبو جعفر ، وقال : إنه دُعاءٌ غير مُستجابٍ ،

وذلك أنّي قد دعوتُ الله تعالى به أن لا أراكَ فلم يَستجب لي ، وقد أمرنا لك باثني عشر ألفاً ، فاذهب وتعالَ متى شئتَ فقد أعيَتني فيك الحِيلة .

•

أقبلَ أعرابيّ الى داود بن المُهلَّب فقال له : إني مدحتُك فاستمِع .

قال : على رِسْلِك .

ثم دخل بيتَه وتقلَّدَ سيفَه وخرج . فقال : قُلْ ، فإن أحسنت حَكَّمناك ، وإن أسأت قَتلناك .

فأنشأ يقول :

أمِنتُ بداوُدٍ وَجودِ يَمينِـــه ،
من الحَدَث المَخْشِيّ والبؤس والفَقْرِ

فأصبحتُ لا أخشى بـداوُدَ نَبْوةً ،
من الحَدَثانِ ، إذ شددتُ بـه أَزْري

له حُكمُ لُقمانٍ ، وصورة يُوسفٍ ،
ومُلكُ سُليمانٍ ، وعَـدْلُ أبي بَكرِ

فتىً تَفْرَقُ الأموالُ من جُودِ كَفّه ،
كما يَفْرَقُ الشيطانُ من ليلةِ القَدْرِ

فقال : قد حكّمناك ، فإن شئتَ على قَدرِك ، وإن شئتَ على قَدري .

قال : بل على قدري . فأعطاه خمسين ألفاً .

فقال له جلساؤه : هلاّ احتكمتَ على قَدْر الأمير .

قال : لم يكُ في ماله ما يَفي بقَدْرِه .

قال له داود : أنتَ في هذه أشعرُ منك في شعرِك .

وأمر له بمثل ما أعطاه .

•

الأصمعي قال : كنت عند الرشيدِ إذ دخل عليه إسحاق ابن إبراهيم المَوْصلي فأنشده :

وآمرةٍ بالبُخلِ قلتُ لها اقصِري ،
فليس إلى ما تأمُرين سَبيلُ

فَعالي فَعالُ المُكْثرين تَجمّلاً ،
ومالي ، كما قد تَعلمين ، قَليلُ

فكيفَ أخافُ الفقرَ أو أُحْرَمُ الغِنى ،
ورأيُ أميرِ المؤمنين جميلُ !

فقال له الرشيد : لله أبياتٌ تأتينا بها ! ما أحسنَ أصولها ، وأبين فصولها ، وأقلَّ فضولها ! يا غلام ، أعطه عشرين ألفاً .

قال : والله لا أخذتُ منها دِرهماً .

قال : ولمَ ؟

قـــال : لأنَّ كلامَك والله يا أميرَ المؤمنين خيرٌ من شعري .

قال : أعطوه أربعين ألفاً .

قال الأصمعي : فعلِمتُ والله أنه أصيدُ لدراهمِ الملوك مني.

•

العُتبي عن أبيه قال :

قَدم زيد بن مُنْية من البَصْرة على مُعاوية ، وهو أخو يَعْلَى بن مُنْيةَ صاحبِ جملِ عائشة رضي الله عنها ومتولّي تلك الحروب ورأسِ أهل البصرة ، وكانت ابنةُ يَعْلى عند عُتبة بن أبي سفيان ، فلما دخل على مُعاوية شكا دَيْنه ، فقال : يا كعبُ ، أعطه ثلاثين ألفاً ؛ فلما ولّى قال : ولِيومِ الجملِ ثلاثين ألفاً ؛ ثم قال له : الحق بصِهْرك ، يعني عُتبة ، فقدم عليه مِصْر ، فقال : إني سِرْت إليك شهرينِ ، أخوضُ فيهما المَتالفَ ، ألبسُ أرديَة الليلِ مرةً ، وأخوضُ في لُججِ السَّرابِ أُخرى ، مُوقَراً[1] من حُسنِ الظنِّ بك ، وهارباً من دهرٍ قَطِمٍ[2] ، ومن دَينٍ لزِم ، بعد غِنًى جَدَعْنا به أُنوفَ الحاسدين .

---

١ موقراً : مزوداً ومحملاً .

٢ قطم : صؤول .

فقال عُتبة : إن الدهرَ أعارَكم غِنى ، وخَلطكم بنا ، ثم استردّ ما أمكنه أخذُه ، وقد أبقى لكم منّا ما لا ضيعةَ معه ، وأنا رافعٌ يدي ويدَك بيدِ الله .

فأعطاه ستين ألفاً كما أعطاه معاوية .

•

إبراهيم الشيبانيّ قال :

قال عبد الله بن عليّ بن سُويد بن مَنْجوف :

أُعدِمَ أبي إعدامة شديدة بالبصرة وأنْفَض[1] ، فخرجَ إلى خُراسان فلم يُصِب بها طائلًا ، فبينا هو يشكو تَعزُّزَ الأشياء عليه إذ عدا غلامُه على كُسوته وبَغلتِه فذهب بهما . فأتى أبا ساسانَ حُضَينَ بن المُنذِر الرَّقاشِيَّ فشكا إليه حاله ؛ فقال له : والله يابن أخي ما عمُّك ممن يَحمِلُ محامِلَك ، ولكن لعلّي أحتالُ لك .

فدعا بكُسوة حَسَنة فألبسني إياها ، ثم قال : امضِ بنا ؛ فأتى باب والي خُراسانَ فدخلَ وتركني بالباب ، فلم ألبث أن خرجَ الحاجبُ فقال : أين عليُّ بن سُويد ؟

فدخلت إلى الوالي ، فإذا حُضين على فِراش إلى جانبه ،

---

١ أنفض : هلك ماله وفني زاده .

فسلّمتُ على الوالي ، فردّ علي ، ثم أقبل عليه حُضين فقال : أصلحَ اللهُ الأمير ، هذا عليُّ بن سُويد بن مَنْجوف سيّدُ فِتْيانِ بكر بن وائل وابنُ سيّدِ كُهولها ، وأكثرُ الناسِ مالاً حاضراً بالبصرةِ ، وفي كل موضِع ملكت بـه بكرُ بن وائل مالاً ، وقد تحمّل بي إلى الأمير في حاجة .

قال : هي مَقضيّة .

قال : فإنه يسألُك أن تمُدَّ يَدك في ماله ومَراكبِه وسلاحِه إلى ما أحببتَ .

قال : لا واللهِ لا أفعلُ ذلك به ، نحن أولى بزيادته .

قال : فقد أعفَيناك من هذه إذ كرِهتَها ، فهو يسألُك أن تُحَمِّله حوائجك بالبَصرة .

قال : إن كانت حاجةٌ فهو فيها ثِقَة ، ولكن أسألُك أن تكلّمه في قَبول مَعونةٍ منّا ، فإنا نحبُّ أن يُرى على مثله من أثرِنا .

فأقبل عليَّ أبو ساسان فقال : يا أبا الحسنِ ، عزمتُ عليك أن لا تَرُدَّ على عمّك شيئاً أكرمك به .

فسكتُّ . فدعا لي بمال ودوابَّ وكساوٍ ورَقيق . فلما خرجت قلت : أبا ساسان ، لقد أوقفتني على خُطّةٍ ما وقَفتُ على مثلِها قط .

قال : اذهب إليك يابن أخي ، فعمُّك أعلم بالناسِ منك ، إن الناسَ إن علِموا لك غِرارةً من مالٍ حَشَوا لك اخرى ، وإن يَعلموك فقيراً تعدَّوا عليك مع فَقرِك .

•

إبراهيم الشَّيْباني قال :

وُلد لأبي دُلامةَ ابنةٌ ليلًا فأوقد السِّراجَ وجعلَ يَخيطُ خَريطةً من شُقَقٍ[1] ، فلما أصبحَ طَواها بين أصابعه وغدا بها الى المهديّ ، فاستأذنَ عليه ، وكان لا يُحجَبُ عنه . فأنشده :

لو كان يَقعُدُ فوقَ الشمسِ من كرمٍ
قومٌ لَقيل اقعدُوا يا آلَ عبَّاسِ

ثم ارتقُوا من شُعاعِ الشمسِ في دَرَجٍ
الى السماء ، فأنتم أكرمُ الناسِ

قال له المهديّ : أحسنتَ والله أبا دُلامة ! فما الذي غدا بك إلينا ؟

قال : وُلِدَت لي جاريةٌ يا أمير المؤمنين .

قال : فهل قلتَ فيها شعراً ؟

قال : نعم قلت :

---

١ الشقق ، واحدتها شقة : السيبة المستطيلة من الثياب .

فما وَلَدَتْكِ مريمُ أمُّ عيسى ، ولم يَكفُلكِ لقمانُ الحكيمُ
ولكن قد تَضُمُّكِ أمُّ سوءٍ إلى لَبَّاتِها ، وأبٌ لئيمُ

قال : فضحِك المهديّ وقال : فما تُريد أن أُعينَك به في تربيتها أبا دلامة ؟

قال : تملأ هذه يا أمير المؤمنين ، وأشار إليه بالخَريطة بين إصبعيه .

فقال المهدي : وما عسى أن تَحمِلَ هذه ؟

قال : من لم يَقنَع بالقليلِ لم يقنَع بالكثير .

فأمر أن تملأ مالاً . فلما نُشِرت أخذَت عليهم صحنَ الدارِ فدخل فيها أربعة آلاف درهم .

•

وكان المهدي قد كسا أبا دلامة ساجاً[1] ، فأخذ به وهو سكران ، فأتي به الى المهدي ، فأمر بتمزيق الساج عليه ، وأن يُحْبَسَ في بيت الدّجاج ؛ فلما كان في بعض الليل وصحا أبو دلامةَ من سُكره ورأى نفسه بين الدّجاجِ ، صاح : يا صاحب البيت ! فاستجاب له السجّان فقال : ما لك يا عدو الله ؟

---

١ الساج : الطيلسان الاخضر أو الأسود .

قال له : ويلك ! من أدخلني مع الدَّجاج ؟

قال : أعمالُك الخبيثة ، أتي بك أميرُ المؤمنين وأنتَ سكرانُ فأمر بتَمْزيقِ ساجك وحَبْسِك مع الدَّجاج .

قال له : ويلك ! أوَتقدِرُ على أن تُوقدَ سِراجاً ، وتجيئَني بدواة ووَرق ؟ فأتاه بدواةٍ وورقٍ ، فكتب أبو دلامة الى المهديّ :

أمِن صَهْباءَ صافيةِ المِزاجِ ، كأنّ شعاعَها لَهبُ السِّراجِ

تَهَشُّ لها النفوسُ وتَشتهيها ، إذا بَرزت تَرَقرقُ في الزُّجاجِ

أميرَ المؤمنين فدتكَ نفسي ، علامَ حبَستَني وخرقتَ ساجي؟

أُقادُ الى السجونِ بغيرِ ذنبٍ ، كأني بعضُ عُمّالِ الخَراج

ولو معهم حُبستُ لهان وَجدي ، ولكني حُبستُ مع الدَّجاجِ

دجاجاتٌ يُطيفُ بهنَّ دِيكٌ ، يُناجي بالصِّياح إذا يُناجي

وقد كانت تُخبّرني ذُنوبي بأني ، من عَذابك ، غيرُ ناجي

على أني ، وإن لاقيتُ شرّاً ، لخيرِك ، بعد ذاك الشرِّ ، راجي

ثم قال : أوصِلْها الى أمير المؤمنين ؛ فأوصلَها إليه السجّان ، فلما قرأها أمر بإطلاقه وأدخله عليه ، فقال له : أين بِتّ الليلة أبا دُلامة ؟

قال : مع الدَّجاجِ يا أمير المؤمنين .

قال : فما كنت تَصنع ؟

قال : كنت أُقاقي معهن حتى أصبحت .

فضحك المهديّ وأمر له بصِلة جَزيلة ، وخَلع عليه كُسوة شريفة .

•

وكتب أبو دُلامة الى عيسى بن موسى ، وهو والي الكوفة ، رُقعةً فيها هذه الأبيات :

إذا جئتَ الأميرَ فقُلْ سلامٌ ... عليك ، ورحمةُ الله الرَّحيمِ

فأمّا بعدَ ذاك ، فلي غريمٌ ... من الأنصار ، قُبِّح من غريمِ

لَزومٌ ، ما علمتُ ، لبابِ داري ، ... لُزومَ الكَلب أصحابَ الرَّقيمِ [1]

له مائةٌ عليَّ ونِصفُ أُخرى ، ... ونِصف النِّصفِ في صكٍّ قديمِ

دراهمُ ما انتفعتُ بها ، ولكنْ ... وصلتُ بها شيوخَ بني تميمِ

قال : فبعث إليه بمائة ألف درهم .

ولَقي أبو دُلامَة أبا دُلفٍ في مَصادٍ له وهو والي العراق ، فأخذ بِعِنانِ فرسه وأنشده :

---

١ أصحاب الرقيم : أهل الكهف .

إنّي حلفتُ لئن رأيتُك سالماً بقُرى العراقِ، وأنت ذو وَفْرِ
لتُصلّينّ على النبيّ محمدٍ، ولتملأنّ دراهماً حِجْري

فقال: أما الصلاة على النبيّ، فنعم، صلى الله عليه وسلم؛ وأما الدراهم، فعندما نرجعُ إن شاء الله تعالى.

قال له: جُعلت فِداكَ، لا تُفرّق بينهما. فاستلفها وصُبّت في حِجْره حتى أثقلته.

•

ودخل أبو دلامة على المهديّ، فأنشده أبياتاً أُعجب بها، فقال له: سَلْني أبا دُلامةَ واحتكم وأفْرِط ما شئت.

فقال: يا أميرَ المؤمنين، كلبٌ أصطاد به.

قال: قد أمرنا لك بكلْب؛ وهاهنا بلَغَتْ أُمنيّتك؟

قال: لا تعجَل عليّ يا أمير المؤمنين، فإنه بقي عليّ.

قال: وما بقي عليك؟

قال: غلامٌ يقود الكلب.

قال: وغلامٌ يقود الكلب.

قال: وخادمٌ يطبخ الصّيد.

قال: وخادمٌ يطبخ الصّيد.

قال: ودار نَسْكُنها.

قال : ودار تَسكُنها .

قال : وجارية نأوي اليها .

قال : وجارية تأوي إليها .

قال : قد بقي الآن المَعاش .

قال : قد أقطعناك ألفَيْ جَرِيبٍ[1] عامرة وألفَي جَريب غامرة.

قال : وما الغامرة يا أمير المؤمنين ؟

قال : التي لا تَعْمُر .

قال : أنا أُقطِعُ أميرَ المؤمنين خمسين ألفاً من فَيافي بني أسد .

قال : قد جعلتُها كلَّها لك عامرة .

قال : فيأذن لي أمير المؤمنين في تَقبيل يده ؟

قال : أما هذه فدَعْها .

قال : ما منعتَني شيئاً أيسرَ على أمٍّ ولدي فَقداً منه .

•

ودخل أبو دُلامة على أبي جعفر المنصور يوماً وعليه قَلَنْسوة طويلة ، وكان قد أخذ أصحابَه بلُبْسِها وأخذَهم بلُبس دَراريعَ ، عليها مكتوبٌ بين كتفي الرجل : فسيَكفيكَهُمُ اللهُ وهو

---

١ الجريب : ثلاثة آلاف وستمائة ذراع .

السَّميعُ العَليم . وأمرهم بتعليقِ السيوف على أوساطِهم ، فدخل عليه أبو دلامة في ذلك الزِّيّ ، فقال له : كيف أصبحت أبا دلامة ؟

قال : بشَرٌ حال يا أمير المؤمنين .

قال : كيف ذلك ؟ ويلك !

قال : وما ظنُّك يا أمير المؤمنين بمن أصبَح وجهُه في وسطه ، وقد نَبذ كتابَ الله عز وجل وراءَ ظهره ؟

قال : فضحك أبو جعفر وأمر بتَغييرِ ذلك ، وامر لأبي دُلامة بصِلة .

•

وأوصل أبو دُلامة الى العبّاس بنِ المنصور رقعةً فيها هذه الأبيات :

قِفْ بالدِّيارِ ، وأيَّ الدهرِ لم تَقفِ ،
على منازلَ بين الظَّهرِ والنَّجَفِ [1]

وما وُقوفُك في أطلالِ منزِلةٍ ،
لولا الذي استحدثَتْ في قلبِك الكَلَفِ

---

١ الظهر : موضع . النجف : موضع بظهر الكوفة ، وهو دومة الجندل بعينها .

إن كنتَ أصبحتَ مَشْغوفاً بجارية ،
فلا وربِّك لا تَشفيكَ من شَغفِ

ولا تَزيدُك إلا العَلّ من أسفٍ ،
فهل لقلبِك من صَبْرٍ على الأسفِ ؟

هذي مقالةُ شيخٍ من بني أسَدٍ ،
يُهدي السلامَ إلى العبّاسِ في الصُّحُفِ

تَخُطُّها من جَواري المِصْرِ كاتبةٌ ،
قد طالما ضُرِبتْ في اللام والألف[1]

وطالما اختلَفت ، صَيْفاً وشاتيةً ،
إلى مُعلِّمها باللوح والكَتَف[2]

حتى إذا ما استوى الثّدْيانِ ، وامتلأت
منها ، وخيفَتْ على الإشْرافِ والقَرَف

صِينَت ثلاثَ سِنينٍ ما ترى أحداً ،
كما تُصانُ ببحرٍ دُرَّةُ الصَّدف

---

١ ضربت في اللام والألف ، أي ضربها معلمها لتتقن الخط .

٢ الكتف : عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه .

بينا الفتى يتمشّى نحو مَسْجِدِهِ،
مُبادِراً لصلاة الصبح بالسُّدَفِ[1]

حانت له نَظْرةٌ منها، فأبصرَها
مُطِلَّةً بين سِجْفَيها من الغُرَفِ

فخرَّ في التُّرْب ما يدري غداتَئِذٍ،
أخرَّ مُنكشِفاً أم غيرَ مُنكشِفِ

وجاءه القومُ أفواجاً بمائِهِمُ،
لِيَنْضحوا الرجلَ المَغشيَّ بالنُّطَفِ[2]

فوَسْوَسُوا بقُرانٍ في مَسامعِهِ،
خوفاً من الجِنِّ، والانسانُ لم يَخَفِ

شيئاً، ولكنَّه من حُبِّ جاريةٍ
أمسى وأصبحَ، من موتٍ، على شرَفِ

قالوا: لكَ الخيرُ ما أبصرتَ؟ قلتُ لهم:
جِنِّيَّةً أقصَدتني من بني خَلَفِ

أبصرتُ جاريةً محجوبةً لهمُ،
تطلَّعت من أعالي القصرِ ذي الشُّرَفِ

---

١ السدف، واحدتها سدفة: الظلمة.

٢ النطف: الماء الصافي.

فقلتُ : مَنْ أيُّكم ، واللهُ يأجُرُه ،
يُعيرُ قُوّتَه منّي الى ضَعفي ؟

فقامَ شيخٌ بَهيٌّ من تِجارِهمُ ،
قد طالما خَدَعَ الأقوامَ بالحَلِف

فابتاعَها لي بألفَي أحمرٍ ، فغدا
بها إليَّ فألقاها على كَتِفي

بِتْنا كذلك حتى جاءَ صاحبُها ،
يَبْغي الدَّنانيرَ بالميزانِ ذي الكِفَف

وذاكَ حقٌّ على زَنْدٍ ، وكيف به ،
والحقُّ في طَرَفٍ والعَينُ في طَرَف

وبين ذاك شُهودٌ لم أُبالِ بهم ،
أكنتُ معترفاً أم غيرَ مُعترف

فإن تَصِلْني قَضيتُ القومَ حقَّهمُ ،
وإن تَقُل لا ، فحقُّ القومِ في تَلف

فلما قرأ العبّاس الأبيات أُعجب بها واستظرفَها ، وقضى عنه ثمن الجارية .

واسم أبي دلامة زَنْد .

•

إبراهيم بن المهديّ قال : قال لي جعفر بن يحيى يوماً : إني استأذنت أمير المؤمنين في الحِجامة وأردت أن أخلوَ وأفرّ من أشغال الناس وأتروّحَ[1] ، فهل أنت مُساعدي ؟

قلت : جعلني الله فِداك ، أنا أسعدُ الناس بمُساعدتِك ، وآنسُ بمُخالاتِك .

قال : بكّر إليّ بُكورَ الغُراب .

قال : فأتيتُ عند الفجر الثاني فوجدتُ الشمعةَ بين يديه ، وهو قاعدٌ ينتظرني للميعاد .

قال : فصلّينا ثم أفضنا في الحديث حتى جاء وقت الحِجامة ، فأتي بحَجّامٍ فحجَمنا في ساعة واحدة ، ثم قُدّمَ إلينا طَعامٌ فطَعِمنا ، فلما غسلنا أيدينا خُلِعَ علينا ثيابُ المُنادمةِ ، وضُمّخنا بالخَلوق[2] ، وظُلِلْنا بأسرّ يومٍ مَرّ بنا .

ثم إنه ذكرَ حاجةً فدعا الحاجبَ ، فقال : إذا جاءَ عبدُ الملك القَهْرمانيّ فأذن له . فنَسي الحاجب ، وجاء عبدُ الملك ابن صالحٍ الهاشمي على جَلالتِه وسِنّه وقَدره وأدبه ، فأذِن

---

١ تروح بالمروحة : أخذ الريح بها . ولعله اراد هنا بتروح ارتاح ، اي سر ونشط .

٢ الخلوق : ضرب من الطيب اعظم اجزائه الزعفران .

له الحاجب . فما راعنا إلا طَلْعةُ عبد الملك ، فتغيّر لذلك جعفرُ بن يحيى وتنغّصَ عليه ما كان فيه . فلما نظر عبدُالملك إليه على تلك الحال دعا غلامَه فدفع إليه سيفَه وسَوادَه وعِمامته ، ثم جاء ووقَف على باب المجلس ، وقال : اصنعوا بي ما صَنعتم بأنفسِكم .

قال : فجاء الغلامُ فطرَحَ عليه ثيابَ المُنادمةِ ، ودعا بالطعام فطَعِمَ ، ثم دعا بالشرابِ فشَرِب ثلاثاً ، ثم قال : ليُخفِّفْ عني ، فإنه شيءٌ ما شربتُه قط . فتهلّل وجهُ جعفر وفَرِح به .

وكان الرشيد قد عَتب على عبد الملك بن صالح ووَجد عليه . فقال له جعفر بن يحيى : جعلني الله فِداك ، قد تفضّلتَ وتطوّلتَ وأسعدتَ ، فهل من حاجةٍ تبلغُها مقدرتي ، أو تُحيطُ بها نِعْمتي ، فأقْضيها لك مُكافأةً لما صنعت ؟

قال : بلى ، إن قلبَ أميرِ المؤمنين عاتبٌ عليّ ، فسَلْه الرضا عنّي .

قال : قد رَضي عنك أميرُ المؤمنين .

ثم قال : عليّ أربعةُ آلاف دينار .

قال : حاضرة ، ولكن من مالِ أمير المؤمنين أحبُّ اليك .

قال : وابني إبراهيمُ أُحِبُّ أن أشُدَّ ظهرَه بصِهْرٍ من أولاد أمير المؤمنين .

قال : قد زوّجه أميرُ المؤمنين ابنَتَه عائشة .

قال : وأُحِبُّ أن تَخْفُقَ الألوية على رأسه .

قال : قد ولاّه أميرُ المؤمنين مصر .

قال : وانصرف عبدُ الملِكِ ، ونحن نَعْجَبُ من إقدامِه على قضاءِ الحوائجِ من غير استئذان أميرِ المؤمنين .

فلما كان من الغد وقَفنا على بابِ الرشيد ودخل جعفرٌ ، فلم نلبَث أن دُعِيَ بأبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن وإبراهيم ابن عبد الملك ، فعُقد النِّكاحُ ، وحُملتِ البِدَرُ الى منزل عبد الملك ، وكُتِبَ سجلُّ إبراهيمَ على مصر .

وخرج جعفرٌ فأشارَ إلينا ، فلما صار الى منزله ، ونحن خلفَه ، نزَل ونزَلنا بنُزوله ؛ فالتفت إلينا فقال : تعلّقَت قلوبُكم بأولِ أمرِ عبدِ الملك فأحببتم معرفة آخره ، وإني لمّا دخلتُ على أميرِ المؤمنين ومَثَلتُ بين يديه وابتدأتُ القِصّة من أوّلِها ، فجعل يقول : أحسنَ واللهِ ! أحسنَ واللهِ ! فما صنعت ؟ فأخبرتُه بما سأل وبما أجبتُه به ؛ فجعلَ يقولُ في ذلك : أحسنتَ ! أحسنتَ ! وخرج إبراهيمُ والياً على مصر .

•

قدِمَ رجلٌ على ملِك من ملوكِ الأكاسرة ، فمكثَ ببابِه

حيناً لا يَصِلُ اليه ، فتلطَّفَ في رُقعةٍ أوصلَها إليه ، وفيها أربعةُ أسطر .

في السطرِ الأول : الضُّرّ والأملُ أقدماني عليك .

والسطرِ الثاني : الفقر لا يكون معه صَبر .

والسطرِ الثالث : الانصرافُ بلا فائدةٍ فِتْنةٌ وشماتةٌ للعدو .

والسطرِ الرابع : فإما نَعَمْ مُثْمِرةٌ ، وإما لا مُريحة .

فلما قرأها وقَّع تحت كلِّ سطرٍ منها بألف مثقالٍ وأمر له بها .

•

ودخل رجلٌ من الشعراءِ على يحيى بن خالدِ بن بَرمَكَ فأنشده :

سألتُ النَّدى : هل أنت حُرٌّ ؟ فقال : لا !
ولكنّني عَبْدٌ ليحيى بنِ خالدِ

فقلتُ : شِراءٌ ؟ قال : لا ! بل وراثةً
تَوارثَني عن والدٍ بعد والدِ

فأمر له بعشرة آلاف .

•

ودخل أعرابيٌّ على خالد بن عبد الله القَسْري فأنشده :

أخالدُ ! إني لم أزُرْك لحَلَّةٍ ،
سِوى أنّني عافٍ وأنتَ جوادُ

أخالدُ ! بينَ الحَمدِ والأجرِ حاجَتي ،
فأيّهما تأتي ، فأنتَ عِمادُ

فأمر له بخمسةِ آلافِ درهم .

•

ومن قولِنا في هذا المعنى ، ودخلتُ على أبي العبّاس القائدِ فأنشدته :

اللهُ جَرّدَ للندى والباسِ سَيفاً ، فقلّده أبا العبّاسِ
مَلكٌ ، إذا استقبلتَ غُرّةَ وجهه ، قَبض الرّجاءُ إليك روحَ الياسِ
وَجْهٌ عليه من الحَياء سكينةٌ ، ومَحبّةٌ تَجْري مع الأنفاسِ
وإذا أحبَّ اللهُ يوماً عبدَه ، ألقى عليه محبّةً للناسِ

ثم سألتُه حاجةً فيها بعضُ الغِلَظ ، فتلكّأ عليّ ، فأخذت سِحابةً[1] من بين يديه فوقّعتُ فيها على البديهة :

ما ضرَّ عندكَ حاجتي ما ضرّها ؟
عُذراً إذا أعطيتَ نفسَك قَدْرَها

---

١ السحابة : القرطاس .

انظُر الى عَرْضِ البِلاد وطُولها،
أوَلستَ أكرَمَ أهلِهـا وأبرَّها؟

حاشى لجُودِكَ أن يُوَعِّرَ حاجتي،
ثِقَتي بجُودِكَ سهّلت لي وَعْرَها

لا يَجتني حُلْوَ المحامدِ ماجدٌ،
حتى يَذوقَ من المطالبِ مُرَّها

فقضى الحاجة وسارَع إليها .

•

وأبطأ عبدُ الله بن يحيى[1] عن الديوان ، فأرسلَ إليه المُتوكّلُ يتعرّفُ خَبره ، فكتب إليه :

عَليلٌ من مَكانَينِ: من الإفلاسِ والدَّينِ
ففي هذين لي شُغْلٌ، وحسبي شُغْلُ هَذَينِ

فبعث إليه بألفِ دينار .

•

عبدُ الله بن منصور قال : كنتُ يوماً في مجلسِ الفضلِ بن يحيى ، فأتاه الحاجبُ فقال : إنّ بالبابِ رجلًا قد أكثر في طلب الإذن ، وزعمَ أن له يداً يَمُتُّ بها .

---

١ هو وزير المتوكل .

فقال : أدخله .

فدخلَ رجلٌ جميلٌ رثُّ الهيئة ، فسلَّم فأحسنَ ، فأومأ إليه بالجلوسِ ، فجلس . فلما عَلِم أنـــه قد انطلقَ وأمكنَه الكلام قال له : ما حاجتك ؟

قال له : قد أعربتْ بها رَثاثةُ هيئتي وضعفُ طاقتي .

قال : أجل ، فما الذي تمُتُّ به ؟

قال : وِلادةٌ تَقْرُبُ من ولادتِـك ، وجِوارٌ يدنو من جوارِك ، واسمٌ مُشتقٌ من اسمك .

قال : أمّا الجِوار فقد يُمكِنُ أن يكونَ كما قلتَ ، وقد يوافِقُ الاسمُ الاسمَ ، ولكن ما عِلمُك بالولادة ؟

قال : أعلَمتْني أُمّي أنهـا لما وضَعتْني ، قيل : إنه وُلِدَ الليلةَ ليحيى بنِ خالدٍ غلامٌ وسُمّي الفضل ؛ فسمَّتني فُضيلًا ، إعظاماً لاسمِك أن تُلحِقَني به .

فتبسَّم الفضل وقال : كم أتى عليك من السِّنين ؟

قال : خَمسٌ وثلاثون سنة .

قال : صدقْتَ ، هذا المِقدارُ الذي أتيتُ عليـه ، فما فعلَتْ أُمُّـك ؟

قال : توفِّيَت رحمها الله .

قال : فما منعك من اللُّحوق بنا فيما مضى ؟

قال : لم أرضَ نفسي للقائِك في عامّيةٍ وحـداثةٍ تُقعِدُني عن لقاء الملوك .

قال : يا غلامُ ، أعطِه لكلّ عامٍ من سِنيه ألفاً ، وأعطِه من كُسوتِنا ومَراكبِنا ما يصلُح له .

فلم يخرج من الدار إلا وقد طاف به إخوانُه وخاصّة أهلِه .

•

وكتب حبيبٌ الطائي الى أحمدَ بن أبي دُواد :

اعلمْ ، وأنتَ المرءُ غيرَ مُعلَّمٍ ؛
وافهمْ ، جُعلتُ فِداك ، غيرَ مُفهَّمِ

أنّ اصطناعَ العُرفِ ، ما لم تُولِهِ
مُستكمِلًا ، كالثوبِ ما لم يُعْلَمِ

والشُّكرُ ، ما لم يُستَتَرْ بصَنيعةٍ ،
كالخَطّ تقرؤه ، وليسَ بمُعْجَمِ

وتَفَنُّني في القولِ إكثارٌ ، وقد
أسرجتَ في كرم الفعال فألجِمِ

•

وقال دِعبِلُ بن عليّ الخُزاعيّ في طاهر بن الحُسين :

أيا ذا اليَمينَينِ والدَّعْوَتَين ، ومَن عنده العُرْفُ والنّائلُ

أترضى لمثلي أنني مقيمٌ ببابك ، مُطَّرَحٌ ، خاملُ ؟
رَضِيتُ ، من الوُدِّ والعائدات ، ومن كلِّ ما أمَّلَ الآملُ
بتسليمةٍ بين خمسٍ وستٍّ ، إذا ضمَّكَ المجلسُ الحافلُ
وما كنتُ أرضى بذا من سِواك ؛ أيرضى بذا رجلٌ عاقلُ ؟
وإن نابَ شُغلٌ ، ففي دون ما تُدبِّرُه شُغُلٌ شاغلُ
عليكَ السلامُ ، فإنّي امرؤ ، إذا ضاقَ بي بَلدٌ ، راحلُ

•

ونظر زيادٌ الى رجلٍ من ضبَّةَ يأكلُ أكلاً قبيحاً ، وهو أقبحُ الناس وجهاً ، فقال : يا أخا ضَبَّةَ ، كم عِيالُك ؟

قال : سبعُ بناتٍ أنا أجمل منهنَّ ، وهنَّ آكل منّي .

فضحك زياد وقال : لله دَرُّك ، ما ألطفَ سؤالك ! افرضوا له ولكلِّ واحدةٍ منهن مائةً وخادماً ، وعجّلوا له ولهنَّ أرزاقَهم .

فخرج الضَّبي وهو يقول :

إذا كنتَ مُرتادَ السَّماحةِ والندَى ،
فنادِ زياداً ، أو أخاً لزيادِ

يُجِبْكَ امرؤٌ يُعطِي على الحمدِ مالَه ،
إذا ضنَّ بالمعروفِ كلُّ جوادِ

وما لِيَ لا أُثني عليكَ ، وإنما
طَريفيَ من مَعروفِكم وتِلادي ؟

•

ووقف دِعْبِلٌ ببعضِ أمراء الرَّقّة ، فلمّا مَثَل بين يديه قال : أصلحَ اللهُ الأميرَ ، إنّي لا أقولُ كما قال صاحبُ مَعْن :

بأيِّ الحَلَّتَينِ عليكَ أُثني ، فإنّي عند مُنصَرَفي مَسؤولُ
أبِالحُسنى ، وليس لها ضِياءٌ عليَّ ، فمن يُصَدِّقُ ما أقولُ
أم الأخرى ، ولستَ لها بأهلٍ ، وأنتَ لكلِّ مَكرُمةٍ فعُولُ

ولكنني أقول :

ماذا أقولُ ، إذا أتيتُ مَعاشري
صِفْراً يداي من الجَوادِ المُجْزِلِ ؟

إن قلتُ أعطاني كذبتُ ، وإن أقُل
ضنَّ الأميرُ بمالِه لم يجمُلِ

ولأنتَ أعلمُ بالمَكارم والعُلا ،
مِن أن أقولَ فعلتَ ما لم تَفْعَلِ

فاختَر لنفسِك ما أقولُ ، فإنني
لا بدَّ مُخبِرُهم ، وإن لم أُسألِ

قال له : قاتلَك الله ! وأمر له بعشرة آلاف درهم .

•

العُتبيّ قال :

دخل ابن عَبْدَل[1] على بِشر بن مروان لما وَلي الكوفة فقعد بين السِّماطين ، ثم قال : أيها الأمير ، إني رأيتُ رُؤيا فأذَن لي في قَصصِها ؛ فقال : قُل . فقال :

أغفَيتُ قبلَ الصُّبحِ نَومَ مُسهَّدٍ ،
في ساعةٍ ما كنتُ قبلُ أنامُها

فرأيتُ أنَّك رُعْتَني بوَليدةٍ
مَفلوجَةٍ ، حَسَنٍ عليَّ قِيامُها[2]

وبِبَدْرةٍ حُمِلت إليَّ ، وبَغلةٍ
شهباءَ ، ناجيةٍ يَصِرُّ لِجامُها[3]

قال له بِشر بن مروان : كلُّ شيء رأيتَ فهو عندي إلاَّ البغلة ، فإنها دهماء فارهة[4] ؛ قال : امرأتي طالقٌ ثلاثاً إن كنتُ رأيتُها إلا دهماء ، إلا أني غَلِطْت .

•

---

١ شاعر اموي .

٢ المفلوجة : المنفرجة الاسنان

٣ الناجية : السريعة .

٤ الفارهة : النشيطة .

الشَّيباني عن البُطَين الشاعر قال :

قدِمتُ على عليّ بن يحيى الأرمِينيّ فكتبتُ إليه :

رأيتُ في النّوم أنّي راكبٌ فرساً،
ولي وَصِيفٌ ، وفي كفّي دنانيرُ

فقال قومٌ لهم حِذقٌ ومعرفة :
رأيتَ خيراً ، وللأحلامِ تَعبيرُ

رُؤياك فَسِّر غداً عند الأمير تَجِدْ
تَعبير ذاك ، وفي الفالِ التَّباشيرُ

فجئتُ مُستبشِراً مُستشعِراً فَرَحاً ،
وعند مثلِك لي بالفِعْلِ تَيْسيرُ

قال : فوقّع لي في أسفل كتابي : أضغاثُ أحلامٍ ، وما نحنُ بتأويل الأحلامِ بعالمين . ثم أمرَ لي بكلّ شيء ذكرتُه في أبياتي ورأيتُه في منامي .

•

وقال بشّار العُقيلي :

حتى متى ليتَ شِعري ، يابن يَقْطينِ ،
أُثني عليك بما لا منك تُولِيني ؟

أما عَلِمتَ ، جزاك الله صالحةً
عنّي ، وزادك خيراً يابنَ يَقْطينِ

أنّي أُريدُك للدنيا وزينتها ،
ولا أُريدُك يومَ الدّينِ للدّينِ ؟

•

وقال آخرُ في مثل هذا المعنى :

يابنَ العَلاء ويا ابن القَرْم مِرداسِ !
إني لأطْريك في أهلي وجُلاّسي[1]

أُثني عليك ، ولي حالٌ تُكذّبُني
فيما أقولُ ، فأستَحيي من الناسِ

حتى إذا قِيلَ : ما أعطاك من صَفَد ؟
طأطأتُ من سُوءِ حالي عندها راسي[2]

---

١ هو عمرو بن العلاء بن مرداس . والشعر لأبي العتاهية . القرم : السيد .
٢ الصفد : العطاء .

الاخذ من الامراء

حدّثنا جعفرُ بن محمد عن يزيدَ بن سِمعان عن عبدِ الله بن ثور عن عبدِ الحميد بن وَهب عن أبي الخَلّال ، قال :

سألتُ عثمانَ بن عفّان عن جائزة السلطان ؛ فقال : لحمٌ طريٌّ زكيٌّ .

•

جعفر بن محمد عن يحيى بن محمد العامريّ عن المُعتمِر عن عِمْرانَ بن حُدَير ، قال :

انطلقتُ أنا ورجلٌ الى عِكْرمةَ ، فرأى الرجلُ عليه عِمامةً مُتخرّقةً ، فقال الرجل : عندنا عمائمُ ، ألا نبعثُ إليك بعِمامةٍ منها ؟ قال عِكْرمة : إنّا لا نَقبلُ من الناسِ شيئاً إنما نقبل من الأمراء .

•

وقال هشامُ بن حسّان :

رأيتُ على الحسنِ البصريّ خَميصةً[1] لها أعلامٌ يصلّي فيها ، أهداها إليه مَسلمةُ بنُ عبدِ الملك .

•

---

١ الخميصة : كساء اسود مربع له علمان .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يَلبَسُ خُفّينِ أسوَدَين أهداهما إليه النَّجاشيُّ صاحبُ الحَبشة .

•

وقال نافعٌ : كان عبدُ الله بن عمر يقبل هدايا أهل الفِتنة ، مثل المُختار وغيره .

•

ودخل مالكُ بن أنَسٍ على هارونَ الرشيد ، فشكا إليه دَيْناً لزِمه ، فأمرَ له بألفِ دينارٍ عين . فلما وضَعَ يديه للقيامِ قال : يا أميرَ المؤمنين ، وزوَّجتُ ابني محمداً فصار عليَّ فيه ألفُ دينار ؛ قال : ولابنه ألفُ دينار .

فلقد مات مالك وتركها لورثتِه في مِزْود .

•

وقال الأصمعي : حدَّثني إسحاقُ بن يحيى بن طلحة قال :

كان الربيع بن خُثَيم في ألفٍ ومائةٍ من العَطاء ؛ فكلَّم فيه أبي معاويةَ ، فألحقَه بألفين . فلما حضَر العَطاء نُودي الربيعُ بن خُثَيم ، فقيل له : في ألفين ، فقعَد ، فنظروا فوجدوا على اسمِه مكتوباً : كلَّم فيه يحيى بنُ طلحة أميرَ المؤمنين ، فألحقَه بألفين .

•

وقال رجلٌ لابراهيمَ بن أدهمَ : يا أبا إسحاقَ ، كنتُ أريدُ أن تقبلَ منّي هذه الجُبَّة كُسوة .

قال : إن كنتَ غنيّاً قبلتُها منك ، وإن كنتَ فقيراً لم أقبلْها منك .

قال : فإني غنيّ .

قال : وكم مالُك ؟

قال : ألفا دينار .

قال : فأنت تودُّ أنها أربعةُ آلاف ؟

قال : نعم .

قال : فأنت فقيرٌ ، لا أقبلُها منك .

•

وأمر إبراهيمُ بن الأغلب ، المعروفُ بزيادةِ الله ، بمالٍ يُقسَّمُ على الفقهاءِ ، فكان منهم من قَبِل ، ومنهم من لم يَقبل ، فكان أسدُ بنُ الفُراتِ فيمَن قَبِل . فجَعلَ زيادةُ الله يَغْمِص[1] على كلٍّ من قَبِل منهم . فبَلغَ ذلك أسدَ بنَ الفُراتِ ، فقال : لا عليه ، إنما أخذنا بعضَ حقوقِنا واللهُ سائلُه عمّا بقي .

•

---

١ يغمص : يعيب .

وقد فخَرتِ العربُ بأخذِ جوائزِ الملوكِ ، وكان من أشرفِ ما يتموّلونه ، فقال ذو الرمّة :

وما كان مالي من تُراثٍ ورثتُه ،
ولا دِيَةٍ كانت ، ولا كَسْبِ مأثمِ

ولكنْ عطاءُ الله من كل رِحْلةٍ ،
الى كل مَحْجوبِ السُّرادق خِضْرمِ[1]

•

وقال آخر يهجو مروانَ بن أبي حفصة ويَعيبه بأخذِه من العامّة ، ويفخَرُ بأنه لا يأخذُ إلا من الملوك ، فقال :

عَطايا أميرِ المؤمنين ، ولم تكن
مُقَسَّمةً من هؤلا وأُولئِكا

وما نِلتَ حتى شِبْتَ إلاّ عطيّةً
تقوم بها ، مَصرورةً في ردائِكا

---

١ الخضرم : الكثير العطاء .

تفضيل بعض الناس على بعض

في العطاء

ذكرَ عمرُ بن الخطّاب رضي الله عنه الفقراء ، فقال : إن سعيدَ بن حِذْيَمٍ منهم ، فأعطاه ألفَ دينار ، وقال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا أعطيت فأغْنِ .

•

وقَدِم على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وفدٌ من العربِ فأعطاهم وفضَّلَ رجلًا منهم ؛ فقيلَ له في ذلك ؛ فقال : كلُّ القوم عِيالٌ عليه .

•

وأعطى النبي صلى الله عليه وسلم يوم حُنين المؤلَّفةَ قلوبُهم[1] ، فأعطى الأقرعَ بن حابسٍ التَّميميَّ وعُيينةَ بنَ حِصْنٍ الفَزاريَّ مائةً من الإبل ، وأعطى العبَّاسَ بنَ مِرداسٍ السُّلميَّ خمسين ؛ فشقَّ ذلك عليه ، فقال أبياتاً ، فأتاه بها وأنشده إياها ، وهي :

---

١ المؤلفة قلوبهم : من التألف وهو المداراة والايناس لرجال حديثي عهد بكفر ليثبتوا على الاسلام رغبة فيما يصل اليهم من المال . (النهاية لابن الاثير) .

أيذهبُ نَهبي ونَهْبُ العُبَيْد بين عُيَينة والأقرعِ[1]

ولا كان حِصْنٌ، ولا حابسٌ، يفوقان مِرداسَ في مَجْمَعِ

وما كنتُ غيرَ امرىءٍ منهمُ، ومَن تَضعِ اليومَ لم يُرفَعِ

فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لبِلالٍ : اقطَعْ عنّي لسانَ العبّاس ؛ فأعطاه حتى أرضاه .

•

وقال صَفْوان بنُ أُميّة : لقد غزوتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما خَلَق الله خلقاً أبغضَ إليّ منه ، فما زال يُعطيني حتى ما خَلَق الله خلقاً أحب إليّ منه . وكان صفوان بن أمية من المؤلّفة قلوبُهم .

•

---

١ العبيد : اسم فرس العباس .

شكر النعمة

سليمانُ التَّميمي قال :

إنَّ الله أنعم على عِباده بقَدْرِ قُدرتِـه ، وكلَّفهم من الشُّكرِ بقدر طاقتِهم .

•

وقالوا : مكتوبٌ في التوراةِ : اشكُرْ لمن أنعَم عليك ، وأَنعِمْ على من شَكَرك .

•

وقالوا : كُفرُ النِّعمـةِ يُوجِبُ زوالَها ، وشُكرُها يُوجِبُ المَزيدَ فيها .

•

وقالوا : مَنْ حَمِدَك فقد وفَّاك حقَّ نِعمتِك .

•

وجاء في الحديث : مَن نشَر معروفاً فقد شكَره ، ومن سَتَره فقد كَفَره .

•

وقال عبدُ الله بن عبّاس : لو أنَّ فِرْعونَ مِصْرَ أسدى إليَّ يداً صالحةً لشكرتُه عليها .

•

وقالوا : إذا قَصُرَت يـــداك عن المكافأةِ ، فليطُل لسانُك بالشُّكر .

•

وقالوا : ما نَحَلَ الله تعالى عِباده شيئاً أقلَّ من الشُّكر ، واعتُبِر ذلك بقول الله عزَّ وجلَّ : وقليلٌ مِن عِبادِيَ الشَّكُور .

•

محمد بن صالح عن الواقدي قال : دخلت على يحيى بن خالد البرمكي ، فقلت : إنَّ هاهنا قوماً جاؤوا يشكرون لك معروفاً ؛ فقال : يا محمد ، هؤلاء يشكرون معروفاً ، فكيف لنا بشكر شكرهم ؟

•

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما أنعَمَ الله على عبده نِعمة فرأى عليه أثَرَها إلا كتَبَ : حبيبُ الله شاكراً لأنعُمِه ؛ وما أنعَمَ الله على عَبدِه نعمةً فلم يَرَ أثرها عليه إلا كتبَ : بغيضُ اللهِ كافراً لأنعمِه .

•

وكتب عديّ بن أرطاةَ الى عمر بن عبد العزيز : إني بأرضٍ كَثُرَت فيها النِّعَمُ ، وقد خِفْتُ على من قِبَلي من المسلمين قِلَّةَ الشُّكر والضعفَ عنه . فكتب إليه عمرُ رضي الله عنه :

إن الله تعالى لم يُنعِم على قومٍ نعمةً فحَمِدوه عليها إلا كان ما أعْطُوه أكثرَ مما أخذوا . واعتُبِر ذلك لقول الله تعالى : ولقد آتَيْنا داوُدَ وسُليمانَ عِلْماً وقالا الحمدُ لله الذي فضَّلَنا . فأيُّ نعمةٍ أفضلُ مما أُوتي داوُد وسُليمان ؟

•

وسمع النبي صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها تُنشد أبيات زُهير بن جَناب :

ارفَع ضعيفَك لا يَحُرْ بك ضَعْفُه
يوماً ، فتُدركَه عواقبُ ما جَنى[1]

يَجْزيك أو يُثني عليك ، فإنّ من
أثنى عليك بما فعلتَ ، كمن جَزى

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : صَدَق يا عائشةُ ، لا شكَرَ اللهُ من لا يشكرُ الناس .

•

الحُشَنِيُّ قال : أنشَدني الرياشيّ :

إذا أنا لم أشكُر على الخير أهلَه ،
ولم أذْمُم الجِنْسَ اللئيم ، المُذَمَّما[2]

---

١ لا يحر : لا يرجع .
٢ الجنس : الجبان واللئيم .

ففيمَ عرفتُ الخيرَ والشكرَ باسمِه ،
وشقَّ ليَ اللهُ المسامعَ والفَمَا ؟

وأنشدني في الشكر :

سأشكرُ عَمْراً ما تراخَت مَنيّتي
أياديَ لم تُمنَن ، وإن هي جَلَّتِ

فتىً غيرَ محجوبِ الغِنى عن صديقِه ،
ولا مُظهِرَ الشكوى ، إذا النعلُ زَلَّتِ

رأى خَلَّتي من حيثُ يَخفى مكانُها ،
فكانت قذى عَينيه حتى تجلَّتِ

•

قلة الكرام في كثرة اللئام

قال النبي صلى الله عليه وسلم : الناس كإبلٍ مائةٍ لا تكاد تَجِد فيها راحلة[1] .

•

وقالتِ الحكماءُ : الكِرامُ في اللئامِ كالغُرَّةِ في الفرس .

•

وقال الشاعر :

تُفاخرني بكَثرتِها قُرَيْظٌ ، وقبلي والَدَ الحَجَلَ الصقورُ[2]

فإن أكُ في شِرارِكُمُ قليلًا ، فإني في خِيارِكُمُ كَثيرُ

بُغاثُ الطَّيرِ أكثرُها فِراخاً ، وأمُّ الصقرِ مِقلاتٌ نَزُورُ[3]

•

وقال السَّموأل :

تُعيِّرُنا أنَّا قليلٌ عَديدُنا ، فقلتُ لها : إنَّ الكِرامَ قليلُ

وما ضَرَّنا أنَّا قليلٌ وجارُنا عزيزٌ ، وجارُ الأكثرينَ ذليلُ

•

---

١ الراحلة : الصالحة لأن ترحل .

٢ والد : فاخر بكثرة الولد .

٣ المقلات : التي تلد واحداً ثم لا تلد بعد ذلك النزور من النساء : القليلة الولد .

وقال حبيب :

ولقد نكونُ ، ولا كريمَ نَنالُه ،
حتى نخُوضَ إليــه ألفَ لئيمِ

•

قال ابن أبي حازم :

وقالوا : لو مَدحتَ فتًى كريماً ؟
فقلتُ : وكيفَ لي بفتًى كريمِ !

بلوتُ ومَرّ بي خَمْسون حَوْلاً ،
وحَسْبُك بالمُجرّبِ من عَليمِ

فلا أحــدٌ يُعَدّ ليوم خَيْرٍ ؛
ولا أحــدٌ يَعودُ على عَدِيمِ[1]

•

وقال دِعْبِل :

ما أكثرَ الناسَ لا بَل ما أقلَّهمُ ،
واللهُ يَعلَمُ أني لم أقُل فَنَــدا[2]

إني لأغْلِقُ عيني ، ثم أفتحها
على كثيرٍ ، ولكن ما أرى أحدا

•

---

١ يعود على عديم : ينفعه ، يصنع اليه معروفاً .

٢ الفند : الكذب .

وأحسنُ ما قيلَ في هذا المعنى قولُ حبيبٍ الطائيّ :

إنّ الجيادَ كثيرٌ في البلاد ، وإن
قَلّوا ، كما غيرُهم قُلّ ، وإن كَثُروا

لا يَدْهَمَنّك من دَهْمائهم عَجبٌ ،
فإنّ جُلّهمُ ، أو كلّهم ، بَقرُ[1]

وكلّما أضحَتِ الأخطارُ بينَهمُ
هَلْكى ، تَبيّن من أضحى له خَطرُ

لو لم تُصادِف شياتُ البَهْمِ أكثرَ ما
في الخَيل ، لم تُحْمَدِ الأوضاحُ والغُرَرُ[2]

•

---

١ الدهماء : جماعة الناس .

٢ الشيات ، واحدتها شية : سواد في بياض او بياض في سواد . الأوضاح ، واحدها وضح : التحجيل في القوائم . الغرر ، واحدتها غرة : بياض في الجبهة .

من جاد أولا وضن آخرا

نزل أعرابيٌّ برجلٍ من أهلِ البَصرة ، فأكرَمه وأحسَن إليه ؛ ثم أمسَك فقال الاعرابي :

تسرّى ، فلما حاسَبَ المرءُ نفسَه ،
رأى أنّه لا يستقرُّ له السَّرْوُ[1]

•

وكان يَزيدُ بن منصور يُجري لبشّارٍ العقيليّ وظيفةً في كلّ شهر ، ثم قطعها عنه ، فقال :

أبا خالد ! ما زِلتَ سابحَ غَمْرَةٍ
صغيراً ، فلما شِبْتَ خيَّمتَ بالشاطي[2]

جرَيتَ زماناً سابقاً ، ثم لم تزَل
تأخَّرُ حتى جئت تقْطو مع القاطي[3]

---

١ تسرى : تكلف السرو ، وهو المروءة في شرف .

٢ خيم : أقام .

٣ القاطي : الثقيل المشي .

كسِنَّور عبدِ الله بيع بِدرْهمٍ
صَغيراً ، فلما شَبّ بيع بِقيراط[1]

•

وقال مُسلم بن الوليد صريعُ الغواني لمحمدِ بن منصور ابن زيادٍ :

أبا حَسنٍ قد كُنتَ قَدّمتَ نعمةً ،
وألحقتُ شُكراً ، ثم أمسكتَ وانيا

فلا خَيْرَ لم تَلْحَقك منّي مَلامةٌ ،
أسأتَ بنا عَوْداً ، وأحسنتَ بادِيا

فأقسِمُ لا أَجزيكَ بالسُّوءِ مثلَه؛
كفى بالذي جازَيتَني لك جازيا

•

---

١ سنور عبد الله : يضرب مثلاً لمن يكون مرجواً في صغره فاذا كبر تراجع ولم يفلح .

من ضن اولا ثم جاد آخراً

قدِم الحارثُ بن خالدٍ المَخزوميّ على عبدِ الملك فلم يَصله فرجع وقال فيه :

صَحِبتُك إذ عَيْني عليها غِشاوةٌ،
فلما انجلَتْ قطَّعتُ نفسي ألومُها

حَبَستُ عليك النفسَ ، حتى كأنما
بكَفَّيك يَجْري بُؤْسُها ونعيمُها

فبلغ قولُه عبدَ الملك ، فأرسل إليه فردَّه ، وقال : أرأيتَ عليك غَضاضةً من مقامك ببابي ؟

قال : لا ، ولكني اشتقتُ إلى أهلي ووطني ، ووجدت فضلًا من القول ، فقلت : وعليّ دَيْن لزمني .

قال : وكم دَينك ؟

قال : ثلاثون ألفاً .

قال : فقَضاءُ دَينِك أحبُّ إليك أم ولاية مكة ؟

قال : بل ولاية مكة .

فولاّه إياها .

•

وقدِمَ الحطيئةُ المدينـــةَ فوقَف الى عُتَيبة بن النَّهّاس العِجْليّ فقال : أعطِني .

فقال : ما لك عندي حق فأعطيَكَه ، وما في مالي فَضْل عن عيالي فأعودَ به عليك .

فخرج عنه مُغضباً ، وعرَّفه بـه جلساؤه ، فأمر بردِّه ، ثم قال له : يا هذا ، إنك وقَفتَ إلينا فلم تستأنِس ، ولم تسلّم ، وكتمتَنا نفسَك ، كأنك الحُطيئة ؟ قال : هو ذلك .

قال : اجلِس ، فلك عندَنا كل ما تُحب .

فجلس ؛ فقال له : من أشعرُ الناس ؟

قال : الذي يقول :

ومن يجعلِ المعروفَ من دونِ عِرْضه
يَفِرْه ، ومن لا يَتَّقِ الشتْمَ يُشْتَمِ

يعني زُهيراً . قال : ثم من ؟

قال : الذي يقول :

من يَسألِ الناسَ يحرموه ، وسائلُ اللهِ لا يَخيبُ

يعني عَبيداً . قال : ثم من ؟

قال : أنا .

فقال لوَكيله : خذ بيدِ هذا فامضِ به الى السوق ، فـلا يُشيرنَّ الى شيء إلاّ اشتريتَه له .

فمضى معه الى السوق فعَرضَ عليه الخَزَّ والقَزَّ، فلم يلتفت الى شيء منه. وأشار الى الأكسية والكرابيس[1] الغِلاظ والأقبية[2] فاشترى له منها حاجته، ثم قال: أمسك.

قال: فإنه قد أمَرني أن أبسط يدي بالنفقة.

قال: لا حاجةَ في أن يكون له على قومي يَدٌ أعظم من هذه؛ ثم أنشأ يقول:

سُئِلتَ، فلم تَبْخل ولم تُعطِ طائلًا،
فسِيّانِ لا ذَمٌّ عليكَ ولا حَمْدُ

وأنتَ امرؤٌ لا الجودُ منك سَجِيَّةٌ،
فتُعطِي، وقد يُعْدي على النائِلِ الوُجْدُ[3]

•

---

١ الكرابيس، واحدها كرباس: ثوب غليظ من القطن الأبيض.

٢ الأقبية، واحدها قباء: وهو ما يسمى الغنباز.

٣ يعدي: يعين. الوجد: اليسار والسعة.

من مدح أميراً فخيبه

قال سَعيد بن سَلْم : مدحني أعرابيّ فأبلَغ ، فقال :

ألا قل لساري الليلِ : لا تخشَ ضِلّةً ؛
سعيدُ بن سَلْمٍ نورُ كلّ بــلادِ

لنا سيّدٌ ، أربى على كلّ سيّـد ،
جوادٌ ، حَثَا في وجهِ كلّ جَوادِ[1]

قال : فتأخرتُ عنه قليلًا . فهجاني فأبلغ ، فقال :

لكلّ أخي مَدْحٍ ثوابٌ علمتُـه ،
وليسَ لِمَدْحِ الباهليّ ثوابُ

مَدحتُ سعيـداً ، والمديحُ مَهزّةٌ ،
فكان كصَفْوانٍ عليــه تُرابُ[2]

•

---

١ حثا : اي حثا التراب ، في وجوه الاجواد ، اي الكرماء ، واراد بذلك ان الاجواد يقصرون عنه في العطاء فيسبقهم سبق الجواد الكريم الذي يثير الغبار في وجه المتخلف عنه من الخيل .

٢ قوله مهزة : اي يهز للمعروف . الصفوان : الحجر الصلد .

ومدحَ الحسنُ بن رَجاء أبا دُلَف فلم يُعطِه شيئاً ، فقال :

أبا دُلَفٍ ما أكذبَ الناسَ كلَّهم
سِوايَ ، فإني في مَديحِك أكذِبُ

•

وقال آخرُ في مثل هذا المعنى :

إني مدحتُـــك كاذباً ، فأثَبْتَني ،
لمَّا مدحتُك ، ما يُثابُ الكاذِبُ

•

وقال آخرُ في مثل هذا المعنى :

لئن أخطأتُ في مَدحِيك ، ما أخطأتَ في مَنْعِي
لقد أحللتُ حاجاتي بوادٍ غيرِ ذي زَرْعِ

•

ومَدح حبيبٌ الطائيّ عيّاشَ بن لَهيعة ، وقدِمَ عليه مصرَ ، واستسلفه مائتي مِثقالٍ ؛ فشاور فيها زوجتَه ، فقالت له : هو شاعرٌ يمدحُك اليومَ ، ويهجوك غداً ؛ فاعتلَّ عليه واعتذرَ إليه ولم يقضِ حاجتَه . فقال فيه :

عيّاشُ إنك لَلئيمُ ، وإنني مُذ صِرتَ موضعَ مطلبي لَلئيمُ

ثم هجاه حتى مات . وهجاه بعدَ موتِه ، فقال فيه :

لا سُقِيَتْ أطلالُك الدائره ، ولا انقضَتْ عَثرتُك العاثِره

يا أسدَ الموتِ تخلّصْتَه من بين فَكَّيْ أسدِ القاصره[1]

•

ومن قولِنا في هذا المعنى ، وسألتُ بعضَ موالي السلطانِ إطلاقَ محبوسٍ ، فتلكّأ فيه ، فقلت :

حاشا لِمِثْلِك أن يَفُكَّ أسيرَا ،
أو أن يكونَ من الزمانِ مُجيرَا

لبِسَتْ قوافي الشعرِ فيك مَدارعاً
سوداً ، وصَكّت أوجُهاً وصُدورا

هلاّ عَطفْتَ برحمةٍ ، لمّا دَعَتْ
ويلاً عليك مدائحي ، وثُبورا

لو أنّ لُؤمَك عادَ جوداً عُشرُه ،
ما كان عندَك حاتمٌ مَذكورا

•

قال : ومدح ربيعةُ الرّقّي يزيدَ بنَ حاتمٍ الأزديّ ، وهو والي مصر ، فاستبطأه ربيعة . فشخصَ عنه من مِصر وقال :

---

١ القاصرة : موضع يمر به السائر اذا سار من مكة يقصد مصر .

أُراني ، ولا كُفْرانَ لله ، راجعاً
بخُفَّي حُنينٍ من نوالِ ابنِ حاتمِ

فبلغَ قولُه يزيدَ بن حاتم . فأرسلَ في طلبه ، فرُدَّ إليه . فلما دخَل عليه قال له : أنت القائل :

أُراني ، ولا كُفرانَ لله ، راجعاً

قال : نعم .

قال : فهل قلتَ غير هذا ؟

قال : لا والله !

قال : لترجِعنَّ بخُفَّي حُنين مملوءين مالاً .

فأمَر بخَلْع نَعليه ومُلِئَتا له مالاً ؛ فقالَ فيه لما عُزِلَ عن مصر وولّي يزيدُ بن أُسَيد السُّلَمي مكانه :

بكى أهلُ مصرٍ بالدّموعِ السواجمِ ،
غداةَ غَدا منها الأغرُّ ابنُ حاتمِ

وفيها يقول :

لشتّانَ ما بينَ اليزيدَيْن في النّدى :
يزيدِ سُلَيمٍ والأغرِّ ابنِ حاتمِ

فَهمٌ الفتى الأزديّ إنفاقُ مالِه ،
وهمٌ الفتى القيْسيّ جمعُ الدراهمِ

فلا يَحسَبِ التّمتامُ أني هَجَوتُه ،
ولكنّني فَضّلتُ أهلَ المكارمِ[1]

•

---

١ التمتام : الذي يعجل في كلامه ولا يفهمه .

أجواد اهل الجاهلية

الذين انتهى إليهم الجُودُ في الجاهلية ثلاثة نفر : حاتمُ بنُ عبد الله بن سعد الطائي ، وهَرِمُ بن سِنانٍ المُرّيُّ ، وكعب ابن مامةَ الإيادِيُّ .

ولكنّ المضروبَ به المثل : حاتمٌ وحدَه ، وهو القائلُ لغُلامه يَسارٍ ، وكان إذا اشتدَّ البردُ وكَلِب الشتاءُ أمر غلامَه فأوقد ناراً في يَفاعٍ[1] منَ الأرضِ لينظُرَ إليها مَن أضلَّ الطريقَ ليلًا فيَصمِد نحوَه ، فقال في ذلك :

أوقِدْ ! فإنَّ الليلَ ليلٌ قَرُّ ، والريحَ يا مُوقِدُ ريحٌ صِرُّ

عسى يَرى نارَكَ من يَمُرّ ؛ إن جلبَتْ ضيفاً فأنتَ حُرُّ

ومرَّ حاتمٌ في سَفرِه على عَنَزةٍ ، وفيهم أسيرٌ . فاستغاثَ بحاتمٍ ولم يحضُره فكاكُه ، فاشتراه من العَنَزِيين وأطلَقه ، وأقام مكانَه في القَيدِ حتى أدّى فِداءَه .

وقالوا : لم يكن حاتمٌ مُمسِكاً شيئاً ما عدا فرسَه وسلاحَه ؛ فإنه كان لا يجود بهما .

---

١ اليفاع : التل .

وقالت نَوارُ امرأة حاتم : أصابتْنا سنةٌ افشعَرَّت لها الأرضُ واغبرَّ أُفقُ السماء ، وراحت الإبل حُدْباً حَدابير[1] ، وضنَّت المراضِعُ على أولادِها فما تَبضُّ بقطرة ، وحلَقت[2] السنةُ المال وأيقنَّا بالهلاك .

فوالله إنَّا لفي ليلة صِنَّبْرٍ[3] ، بعيدةٍ ما بين الطَّرفين ، إذ تَضاغى[4] صِبْيتُنا جُوعاً ، عبدُ الله وعديّ وسَفَّانةُ ، فقام حاتم الى الصَّبِيّين ، وقُمتُ أنا الى الصَّبيّةِ ؛ فوالله ما سكَتوا إلا بعدَ هدأةٍ من الليل .

وأقبل يعلّلني بالحديثِ ، فعرفتُ ما يُريد فتناومت .

فلما تَهوّرتِ[5] النجومُ ، إذا شيءٌ قد رفَع كِسْر البيتِ[6] ثم عاد ؛ فقال : من هذا ؟

قالت : جارتُكَ فلانةُ ، أتيتُك من عند صِبْية يتعاوَون عواءَ الذئاب ، فما وجدتُ مُعوَّلاً إلاَّ عليك يا أبا عديّ .

فقال : أعجِليهم فقد أشبَعك اللهُ وإيّاهم .

---

١ الحدابير ، واحدتها حدبار وحدبير : الناقة الضامرة .

٢ حلقت المال : اهلكته واستأصلته كما تحلق الموسى الشعر .

٣ صنبر : شديدة البرد .

٤ تضاغى : صاح .

٥ تهورت : ذهبت وولت .

٦ كسر البيت : الشقة السفلى من الخباء .

فأقبلت المرأة تحمِلُ اثنين ويمشي جانِبَيها أربعة ، كأنها نَعامةٌ حولها رئالُها ، فقام الى فرسِه فوَجأ لَبَّتَه[1] بمُديةٍ فخَرَّ ، ثم كَشَطه عن جِلده ودفع المُدية الى المرأةِ ، فقال لها : شأنَك .

فاجتمعنا على اللحم نَشوي ونأكل ، ثم جعل يمشي في الحيِّ يأتيهم بيتاً بيتاً ، فيقول : هُبُّوا أيها القومُ عليكم بالنار .

فاجتَمعوا والتفَع[2] في ثوبهِ ناحيةً ينظرُ إلينا ، فلا والله إن[3] ذاق منه مُزْعة[4] ، وإنه لأحوجُ إليه مِنّا ، فأصبَحنا وما على الأرضِ من الفرس إلا عَظْمٌ وحافرٌ ، فأنشأ حاتم يقول :

مَهلًا نَوارُ ! أقلِّي اللومَ والعَذَلا ،
ولا تقُولي لشيءٍ فاتَ : ما فعَلا ؟

ولا تقولي لمالٍ كنتُ مُهلِكَه :
مَهلًا ، وإن كنتُ أُعطي الإنسَ والخَبلا[5]

يرى البخيلُ سبيلَ المالِ واحدةً ؛
إنَّ الجوادَ يرى في ماله سُبلا

---

١ وجأ : شق . لبته : اعلى صدره .
٢ التفع : التف .
٣ ان : ما .
٤ المزعة : القطعة من اللحم .
٥ الخبل : الجن .

ورُؤي حاتمٌ يوماً يضرِبُ ولَده لمَّا رآه يضرِبُ كلبةً كانت تدُلُّ عليه أضيافَه ، وهو يقول :

أقولُ لابني، وقد سُطْتُ يديه ... بكَلْبةٍ لا يزال يَجْلِدُها[1]

أُوصِيكَ خيراً بها ، فإنَّ لها ... عندي يداً لا أزالُ أحْمَدُها

تدُلُّ ضَيْفي عليَّ، في غَلَسِ ... الليل ، إذا النارُ نام مُوقِدُها

وذكرت طيِّء عند عَديِّ بنِ حاتم : أنَّ رجلًا يُعرَفُ بأبي الحَيْبريِّ مرَّ بقبرِ حاتمٍ فنزل به وجعل ينادي : أبا عَدِيّ ، أقرِ أضيافك .

قال : فيقال له : مهلًا ! ما تُكلِّمُ من رِمّةٍ باليةٍ ؟

فقال كالمستهزىء : إن طَيِّئاً يزعُمون أنه لم ينزِل به أحد إلا قراه .

فلما كان في السَّحرِ وثب أبو الحَيبري يَصيحُ : واراحلتاه ! فقال له أصحابه : ما شأنك ؟

قال : خرجَ والله حاتمٌ بالسيفِ حتى عَقَرناقتي وأنا أنظُر إليها . فتأملوا راحلتَه فإذا هي لا تنبعثُ ، فقالوا : قد والله أقراك . فنحروها وظلُّوا يأكلون من لحمِها ، ثم أردفوه وانطلقوا .

---

١ سطت يديه : ضربتهما بالسوط . بكلبة : اي بسبب كلبة كان يجلدها .

فبينما هم في مَسيرِهم إذ طلَع عليهم عديُّ بن حاتم ومعه جملٌ قد قَرَنه ببعيره ، فقال : إن حاتماً جاء في النوم فذكر لي قولَك وأنه أقراك وأصحابَك راحلتَك وقال لي أبياتاً ردَّدها عليّ حتى حفظتُها وهي :

أبا الخَيْبريِّ ، وأنت امرُؤٌ حَسودُ العَشيرة ، شَتَّامُها
فماذا أردتَ إلى رِمّةٍ بداويّةٍ ، صَخِبٍ هامُها؟[1]
أتبغي أذاها وإعسارَها ، وحولَك غَوْثٌ وأنعامُها؟[2]
وإنّا لنُطْعِمُ أضيافَنا من الكُوم، بالسَّيفِ نَعْتامُها[3]

وأمرني بدفع راحلةٍ عوضَ راحلتِك فخذها ؛ فأخذَها .

ولحاتم بن عبدالله أيضاً :

أماويَّ ! قد طال التجنّبُ والهَجْرُ ،
وقد عَذَرَتنا عن طِلابكمُ العُذْرُ[4]

---

١ الداوية : الفلاة . الهام ، واحدتها هامة : طائر زعمت العرب أنه يخرج من رأس القتيل فلا يزال يصيح اسقوني اسقوني حتى يؤخذ بثأره .
٢ هو الغوث بن طيء ، جد حاتم الأعلى واليه ينتهي نسبه .
٣ الكوم ، واحدتها كوماء : الناقة العظيمة السنام . نعتامها : نختارها .
٤ العذر ، واحدها عذار : ما سال على خد الفرس من اللجام .

أمـاويَّ ! إنَّ المالَ غـادٍ ورائحٌ ،
ويَبقى من المالِ الأحاديثُ والذِّكْرُ

أمـاويَّ ! إمّـا مانـعٌ فمُبَيَّنٌ ؛
وإمّـا عَطاءٌ لا يُنَهْنِهُـه الزَّجْرُ[1]

أمـاويَّ ! إني لا أقولُ لسائلٍ ،
إذا جاء يوماً ، حَلَّ في مالِيَ النَّذْرُ

أمـاويَّ ! ما يُغني الثَّراءُ عن الفتى ،
إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاق بها الصَّدرُ[2]

أمـاويَّ ! إنْ يُصبح صَـدايَ بقَفْرةٍ
من الأرضِ ، لا ماءٌ لديَّ ولا خَمرُ

تَرَيْ أنَّ ما أنفقتُ لم يكُ ضَرَّني ؛
وأنَّ يـدي مما بَخِلتُ بـه صِفْرُ

إذا أنا دلاَّني الذين يلُونـني
بمُظلِمـةٍ لُجٍّ ، جوانبُهـا غُبْرُ[3]

---

١ ينهنهه : يكفه ويمنعه .

٢ حشرجت ، اي نفسه ، والحشرجة : الغرغرة عند الموت .

٣ بظلمة لج : اي حفرة عميقة .

وراحوا سِراعاً يَنفضُون أكفَّهم ،
يقولون : قد أدمى أظافرَنا الحَفر

أماويَّ ! إنَّ المالَ مالٌ بذلتُه ،
فأوّلُه شُكرٌ وآخرُه ذِكْر

وقد يَعلمُ الأقوامُ ، لو أنَّ حاتماً
أراد ثراءَ المالِ ، كان له وَفر

فإني ، وجَدِّي ، رُبَّ واحدِ أُمِّه
أجرتُ ، فلا قَتْلٌ عليه ولا أسْر

ولا أظلِمُ ابنَ العَمِّ ، إن كان إخوتي
شُهوداً ، وقد أَوْدى بإخوتِه الدَّهر

غَنِينا زماناً بالتَّصَعْلُكِ والغِنى ،
وكُلاًّ سَقاناه بكأسَيْهما الدهر[1]

فما زادنا بَأواً على ذي قرابةٍ
غِنانا ، ولا أزرى بأحلامِنا الفَقر[2]

•

---

١ التصعلك : الفقر .

٢ البأو : أن يفخر المرء بنفسه ويرفعها .

وأمّا هَرِمُ بنُ سِنانٍ فهو صاحبُ زُهير الذي يقول فيه :

متى تَلْقَ ، على عِلاّتِـه ، هَرِماً ،
تَلْقَ السماحةَ في خَلْقٍ وفي خُلُقِ

وكان سِنانٌ أبو هَرِمٍ سيّدَ غَطفانَ ، وماتت أُمُّه وهي حاملٌ بـه ، وقالت : إذا أنا متُّ فشُقّوا بطني فإنّ سيّدَ غَطفانَ فيه . فلما ماتت شَقُّوا بطنَها فاستخرجوا منه سِناناً .

وفي بني سِنان يقولُ زهير :

قومٌ أبوهم سِنانٌ ، حين تَنْسبُهم ،
طابوا وطابَ من الأولادِ ما وَلَدُوا

لو كان يَقعُدُ ، فوقَ الشمسِ ، من كرمٍ ،
قومٌ بأوّلِهم أو مَجْدِهم قَعَدُوا

جِنٌّ إذا فزِعوا ، إنسٌ إذا أمِنُوا ،
مُرزَّؤونَ ، بَهاليلٌ إذا قُصِدوا

مُحسَّدونَ على ما كان من نِعَمٍ ،
لا يَنزِعُ اللهُ منهم ما لَه حُسِدُوا

وقال زُهيرٌ في هرمِ بن سِنان :

وأبيضَ فيّاضٍ ، يداه غمامةٌ
على مُعتَفيه ، ما تُغِبّ نوائلُه[1]

---

١ ما تغب : ما تنقطع .

تراه ، إذا ما جِئتَـــهُ ، مُتهلّلا ،
كأنك تُعطِيـه الذي أنتَ سـائِلُهْ

أخو ثقـةٍ ، لا تُتلِفُ الخمرُ مالَه ،
ولكنّه قـد يُتلِفُ المـالَ نائلُه

أخذ الحسنُ بن هانىء هذا المعنى فقال :

فتىً لا تَعولُ الخمرُ شَحْمَـةَ ماله ،
ولكنْ أيـــادٍ عُوَّدٌ وبوادِي

وقال زهير في هرم بن سنان وأهل بيته :

إليـكَ أعملتُها فُتْلا مَرافقُهـــا ،
شَهْرينِ ، يَجهضُ من أرحامِها العَلَقُ[1]

حتى دفَعْن الى حُلْوٍ شمائلُـه ،
كالغَيثِ يَنْبُتُ في آثارِه الوَرَقُ

من أهلِ بيتٍ برى ذو العرشِ فضلَهم ،
يُبْنى لهم ، في جِنانِ الخُلْدِ ، مُرتَفَقُ

المُطْعِمون ، إذا ما أزمـةٌ أزِمَت ،
والطَّيِّبون ثياباً ، كلّمـا عَرِقوا

---

١ العلق : الدم الجامد .

كأنّ آخرَهم ، في الجُودِ ، أوّلُهم ؛
إنّ الشمائلَ والأخلاقَ تتّفقُ

إن قامروا قَمَروا ، أو فاخروا فخَروا ،
أو ناضلوا نَضَلوا ، أو سابقوا سَبَقوا

تَنافَسُ الأرضُ موتاهمْ ، إذا دُفِنوا ،
كما تُنافِسَ عند الباعة الوَرِقُ[1]

وقال فيهم أيضاً :

وفيهم مَقاماتٌ ، حِسانٌ وُجوهُهم ،
وأندِيةٌ يَنتابُها القَولُ والفِعْلُ

على مُكثريهم حَقُّ مَنْ يَعْتفيهِمُ ،
وعند المُقِلّين السماحةُ والبَذْلُ

فما كان من خيرٍ أتَوْه ، فإنما
توارَثه آباءُ آبائِهم قَبْلُ

وهل يُنبِتُ الخَطّيَّ إلاّ وَشيجُه ،
وتُغْرَسُ إلاّ في مَنابِتِها النَّخْلُ ؟

•

---

١ الورق : الذهب .

وأما كعبُ بن مامةَ الإيادي، فلم يأتِ عنه إلا ما ذُكِر من إيثارِه رفيقَه النَّمَري بالماء حتى ماتَ عطشاً ونجا النمري، وهذا أكثرُ من كل ما أُثني لغيره .

وله يقول حبيب :

يجودُ بالنفسِ إن ضَنَّ البَخيلُ بها ،
والجودُ بالنفسِ أقصى غايةِ الجُودِ

وله ولحاتم الطائي يقول :

كعبٌ وحاتمٌ ، اللذان تقسَّما
خُطَطَ العُلاَ من طارفٍ وَتَليدِ

هذا الذي خَلَفَ السَّحابَ ، ومات ذا ،
في المجدِ ، مِيتةَ خِضْرمٍ صِنْديدِ

إلاّ يكُن فيها الشهيدَ ، فقومُـــه
لا يَسمَحون بـــه بألفِ شَهيدِ

أجواد أهل الاسلام

وأما أجوادُ أهلِ الاسلام فأحدَ عشرَ رجلًا في عصرٍ واحدٍ لم يكن قبلَهم ولا بعدَهم مثلُهم .

فأجوادُ الحجازِ ثلاثةٌ في عصرٍ واحد : عُبيدُ الله بن عبّاس ، وعبدُ الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص .

وأجواد البصرة خمسة في عصر واحد ، وهم : عبدُ الله بن عامر بن كُريز ، وعُبيدُ الله بن أبي بكرة ، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومُسلم بن زياد ، وعبيد الله بن مَعمر القرشيّ ، ثم التَّيْميّ ، وطَلْحةُ الطَّلَحات ، وهو طلحةُ بن عبد الله ابن خَلف الخُزاعيّ ، وله يقول الشاعر يرثيه ، ومات بِسِجِسْتان وهو والٍ عليها :

نَضَّر اللهُ أعظُماً دَفَنوها بِسِجِسْتان ، طلحةَ الطلَحاتِ

وأجوادُ أهل الكوفةِ ثلاثةٌ في عصرٍ واحد ، وهم : عَتّاب ابن ورقاء الرِّياحي ، وأسماءُ بن خارجة الفَزاري ، وعِكْرمةُ ابن رِبْعي الفيّاض .

فمن جود عبيد الله بن عبّاس ، أنه أولُ من فطَّر جيرانه ، وأول من وضع الموائد على الطُّرق ، وأول من حَيَّا على طعامه ، وأول من أنْهَبه ، وفيه يقول شاعر المدينة :

وفي السَّنة الشَّهباء أطعمتَ حامضاً
وحُلْواً ، ولَحْماً تامِكاً ومُمَزَّعا[1]

وأنتَ ربيعٌ للبتامى وعِصْمةٌ ،
إذا المَحلُ من جَوِّ السماء تَطَلَّعا

أبوك أبو الفَضْلِ الذي كان رحمةً ،
وَغوْثاً ونُوراً للخلائق أجمعا

•

ومن جوده : أنه أتاه رجل وهو بفِناء داره ، فقام بين يديه فقال : يابن عباس ، إن لي عندك يداً ، وقد احتجتُ اليها .

فحمَّد فيه بصرَه وصوَّبه ، فلم يعرفه ، ثم قال له : ما يدك عندنا ؟

قال : رأيتُك واقفاً بزمْزم وغُلامُك يَمْتح[2] لك من مائِها ، والشمسُ قد صَهَرَتك ، فظلَّلتُك بطَرَفِ كِسائي حتى شَربت .

---

١ السنة الشهباء : التي لا خضرة فيها ولا مطر . تامكاً : مكتنزاً . ممزعاً : مقطعاً مفرقاً .

٢ يمتح : يستقي .

قال : إني لأذكرُ ذلك ، وإنـــه يتردَّدُ بين خاطري وفِكري .

ثم قال لِقَيِّمه : ما عندك ؟

قال : مائتا دينار وعشرة آلاف دِرْهم .

قال : فادفعها إليه وما أُراها تَفي بحقِّ يده عندنا .

فقال له الرجل : والله لو لم يكن لإسماعيلَ ولدٌ غيرُك لكان فيه ما كفاه ، فكيف وقد وَلد سيّدَ الأولين والآخرين محمداً صلى الله عليه وسلم ، ثم شَفَعه بك وبأبيك !

•

وَمن جودِه أيضاً : أن معاويةَ حَبس عن الحُسينِ بن علي صِلاتِه حتى ضاقَت عليه حالُه . فقيل له : لو وَجّهت إلى ابنِ عمك عُبيدِ الله ، فإنه قد قدمَ بنحوٍ من ألفِ ألفِ دِرْهم .

فقال الحُسين : وأين تَقعُ ألفُ ألفٍ من عُبيدِ الله ، فوالله لهو أجودُ من الريحِ إذا عَصفت ، وأسخى من البحر إذا زَخر .

ثم وجَّهَ إليه مع رسوله بكتاب ذكر فيه حَبْسَ معاويةَ عنه صِلاتِه وضيقَ حاله ، وأنه يحتاجُ إلى مائةِ ألف دِرْهم .

فلما قرأ عُبيدُ الله كتابَه ، وكان من أرقِّ الناسِ قلباً وألينهم عطفاً ، انهملت عَيناه ، ثم قال : ويلكَ يا معاويةُ ممّا

اجترحَتْ يداك من الإثمِ حين أصبحتَ ليّنَ المِهاد ، رفيعَ العِمادِ ، والحُسينُ يشكو ضيقَ الحالِ ، وكثرَةَ العيالِ !

ثم قال لقَهرمانه : احمِل إلى الحُسينِ نصفَ ما أملِكُه من فِضَّةٍ وذهبٍ وثوبٍ ودابةٍ ، وأَخْبِرْه أني شاطرتُه مالي ، فإن أقنَعه ذلك وإلا فارجِع واحمِل إليه الشَّطرَ الآخر .

فقال له القَيِّمُ : فهذه المُؤَنُ التي عليك من أينَ تقوم بها ؟

قال : إذا بَلغنا ذلك دللتُك على أمرٍ يُقيمُ حالَك .

فلما أتى الرسولُ برسالتِه إلى الحُسين ، قال : إنّا للهِ ! حمَلتُ والله على ابنِ عمي وما حَسِبْته يتّسعُ لنا بهذا كلّه .

فأخذ الشطر من مالِه . وهو أول من فعلَ ذلك في الإسلام .

•

ومن جودِه : أن معاويةَ بنَ أبي سُفيانَ أهدى إليه وهو عندَه بالشامِ من هدايا النَّيْروزِ حُللًا كثيرةً ومِسْكاً وآنيةً من ذَهبٍ وفِضّة ووجَّهها مع حاجبه ، فلما وضَعها بين يديه نظرَ إلى الحاجب وهو ينظر إليها ، فقال : هل في نفسِك منها شيء ؟

قال : نعم والله ، إنّ في نفسي منها ما كان في نفسِ يعقوبَ من يوسفَ عليهما السلام .

فضَحِك عُبيد الله ، وقال : فشأنَك بها فهي لك .

قال : جُعِلتُ فِداك ، أخافُ أن يبلُغَ ذلك معاوية فيَجِدَ عليَّ .

قال : فاختِمها بخاتَمِك وادفَعها إلى الخازنِ فإذا حانَ خروجُنا حَملها إليك ليلًا .

فقال الحاجب : والله لَهذه الحيلةُ في الكرمِ أكثرُ من الكرم ، ولَوَدِدْتُ أنّي لا أموتُ حتى أراك مكانه ، يعني معاوية .

فظنَّ عُبيدُ الله أنها مَكيدةٌ منه ، قال : دَع عنك هذا الكلام فإنّا قوم نَفي بما وَعَدنا ، ولا ننقُضُ ما أكَّدنا .

•

ومن جودِه أيضاً : أنه أتاه سائلٌ وهو لا يعرِفُه ، فقال له : تصدَّق ، فإني نُبِّئتُ أن عُبيدَ الله بن عبّاس أعطى سائلًا ألفَ درهم واعتذر إليه .

فقال له : وأينَ أنا من عُبيدِ الله ؟

قال : أينَ أنت منه في الحسبِ أم كثرةِ المال ؟

قال : فيهما .

قال : أما الحسبُ في الرجل ، فمروءتُه وفِعْله ، وإذا شئت فَعَلتَ ، وإذا فعلتَ كنتَ حَسيباً .

فأعطاه ألفي درهمٍ واعتذَر له من ضيقِ الحال ؛ فقال له السائل : إن لم تكن عُبيدَ الله بنَ عبّاس فأنت خيرٌ منه ، وإن كنتَ هو فأنتَ اليومَ خيرٌ منك أمسِ .

فأعطاه ألفاً أخرى . فقال السائل : هذه هِزّةُ كريمٍ حسيبٍ ، والله لقد نَقرتُ حبّةَ قلبي فأفرغتُها في قلبِك ، فما أخطأتُ إلا باعتراضِ الشك بين جوانحي .

•

ومن جوده أيضاً : أنه جاءه رجل من الأنصار فقال : يابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انه وُلد لي في هذه الليلة مولودٌ ، وإني سمّيتُه باسمِك تبرُّكاً منّي به ، وإنّ أُمّه ماتت .

فقال عبيدُ الله : بارك الله لك في الهِبة وأجزلَ لك الأجر على المصيبة .

ثم دعا بوكيله ، فقال : انطلق الساعةَ فاشترِ للمولود جارية تحْضِنُه ، وادفع اليه مائتي دينار للنّفقة على تربيته ؛ ثم قال للأنصاري : عُد الينا بعدَ أيام فإنك جِئْتنا وفي العيش يُبسٌ وفي المال قِلّة .

قال الأنصاري : لو سَبقتَ حاتماً بيوم واحد ما ذكَرَتْه العربُ أبداً ، ولكنه سَبقك ، فصِرْتَ له تالياً ، وأنا أشهدُ أن عَفْوَك أكثرُ من مجهودِه ، وطَلّ كَرمِك أكثرُ من وابله .

•

ومن جودِ عبدِالله بن جعفر أن عبد الرحمن بن أبي عَمّار دخل على نخّاسٍ يعرِضُ قِياناً له ، فعَلِق واحدةً منهن ، فشُهِر بذكرها حتى مشى اليه عطاءٌ وطاووس ومُجاهدٌ يَعْذُلونه ، فكان جوابه أن قال :

يَلُومني فيكَ أقوامٌ أُجالسُهم ،
فما أُبالي أَطارَ اللومُ أم وَقعَا

فانتهى خبره الى عبدِالله بن جعفر ، فلم يكن له هَمّ غيره ؛ فحجّ فبعثَ الى مولى الجارية ، فاشتراها منه بأربعين ألفَ درهمٍ ، وأمر قَيِّمةَ جواريه أن تُزيِّنها وتحلّيَها ، ففعلت .

وبلغَ الناسَ قدومُه فدخلوا عليه ، فقالَ : ما لي لا أرى ابنَ أبي عمّار زارنا !

فأخبِرَ الشيخُ ، فأتاه مسلّماً . فلما أرادَ أن يَنهَضَ استجلسه ثم قال : ما فَعل حُبُّ فلانَة ؟

قال : في اللحم والدمِ والمُخّ والعَصب .

قال : أتعرفُها لو رأيتَها ؟

قال : لو أُدخِلتُ الجنّةَ لم أُنكِرْها .

فأمر بها عبدُ الله أن تخرُجَ اليه ، وقال له : إنما اشتريتُها لك ، ووالله ما دنوتُ منها ، فشأنَك بها مُبارَكاً لك فيها .

فلما ولى قال : يا غلام ، احمِل معه مائة ألف درهم يَنعمُ بها معها .

قال : فبكى عبدُ الرحمن فرحاً ، وقال : يا أهلَ البيتِ ، لقد خصَّكم الله بشرفٍ ما خصَّ به أحداً قبلكم من صُلبِ آدم ، فتَهْنئكُم هذه النعمةُ ، وبورك لكم فيها .

•

ومن جوده أيضاً : أنه أعطى امرأةً سألته مالاً عظيماً ، فقيل له : إنها لا تعرفُك وكان يُرضيها اليسيرُ .

قال : ان كان يُرضيها اليسير فإني لا أرضى الا بالكثير ، وان كانت لا تعرفُني فأنا أعرفُ نفسي .

•

ومن جود سعيد بن العاص : أنه مَرِض وهو بالشام ، فعاده معاوية ومعه شُرَحْبِيلُ بن السِّمط ، ومُسْلِمُ بن عُقبة المُرِّيُّ ، ويزيدُ بن شَجرة الرَّهاويُّ ، فلما نظرَ سعيدٌ معاويةَ وثب عن صدرِ مجلِسه إعظاماً لمعاويةَ . فقال له معاوية : أقسمتُ عليك أبا عثمان أن لا تتحرَّك ، فقد ضَعُفتَ بالعلّة .

فسقط ، فتبادرَ مُعاويةُ نحوه حتى حَنا عليه وأخذ بيده ، فأقعده على فراشه وقعد معه ، وجعلَ يُسائله عن عِلتِه ومنامه وغذائه ، ويَصِفُ له ما ينبغي أن يتوقاه ، وأطال القعود معه .

فلما خرجَ التفتَ الى شُرَحْبيلَ بنِ السِّمط ، ويزيدَ بن شجرةَ ، فقال : هل رأيتما خللًا في مالِ أبي عُثمان ؟

فقالا : ما رأينا شيئاً نُنكِرُه .

فقال لمُسلم بن عُقبة : ما تقول ؟

قال : رأيت .

قال : وما ذاك ؟

قال : رأيتُ على حَشَمِه ومواليه ثياباً وَسِخة ، ورأيتُ صحنَ دارِه غيرَ مَكنوسٍ ، ورأيتُ التجّارَ يُخاصمون قَهرمانَه .

قال : صدقتَ ، كلُّ ذلك قد رأيتُه .

فوجَّه إليه مع مُسلمٍ بثلاثمائة ألفٍ . فسبَق رسولٌ يُبشّرُه بها ويُخبرُه بما كان ؛ فغَضِب سَعيدٌ وقال للرسول : إنَّ صاحبَك ظنَّ أنه أحسنَ فأساء ، وتأوّلَ فأخطأ ، فأمّا وَسَخُ ثيابِ الحَشَم فمن كَثرةِ حركتِه اتسخَ ثوبُه ؛ وأمّا كَنْسُ الدارِ فليست أخلاقُنا أخلاقَ مَن جعل داره مرآتَه ، وتَزيُّنَه لُبْسَه ، ومعروفَه عِطْرَه ، ثم لا يبالي بمن ماتَ هَزلاً من ذي لُحمةٍ أو حُرْمةٍ ؛ وأما مُنازعةُ التجّار قَهرماني ، فمن كَثرةِ حوائجه وبَيْعِه وشرائِه لم يجدْ بدّاً من أن يكونَ ظالماً أو مظلوماً ؛ وأما المالُ الذي أمر به أميرُ المؤمنين ،

فرصلَتْه كلُّ ذي رَحِم قاطعة ، وَهَنأتْه كرامتُه المُنْعَمُ بها عليه ، وقد قَبِلناه وأمرنا لصاحبِك منه بمائةِ ألف ، ولشُرَحْبيل بن السِّمط بمثلِها ، وليزيدَ بن شجَرة بمثلِها ، وفي سَعةِ الله وبَسْطِ يَدِ أمير المؤمنين ما عليه مُعَوَّلُنا .

فركِبَ مُسْلِمُ بن عُقبةَ الى معاويةَ فأعلمه ، فقال : صدقَ ابنُ عمّي فيما قال ، وأخطأتُ فيما انتهيتُ إليه ، فاجعلْ نصيبَك من المال لرَوْحِ بن زِنْباعٍ عقوبةً لك ، فإنه من جَنى جنايةً عُوقبَ بمثلِها ، كما أنه مَن فَعل خيراً كُوفىء عليه .

•

ومن جودِه أيضاً : أن معاويةَ كان يداولُ بينه وبينَ مَرْوان بنِ الحَكَم في ولايةِ المدينة ، فكانَ مَروانُ يُقارِضُه[1] ، فلما دخل على مُعاويةَ قال له : كيف تركتَ أبا عبد الملك ؟ يعني مَرْوان .

قال : تركتُه مُنفّذاً لأمرِك ، مُصْلِحاً لعملِك .

قال معاوية : إنه كصاحب الخُبزةِ كُفي إنضاجَها فأكلها .

قال : كلا يا أميرَ المؤمنين ، إنه من قومٍ لا يأكلون إلاّ ما حَصدوا ، ولا يحصُدون إلاّ ما زرعوا .

---

١ يقارضه : ينظر كل واحد منهما الى صاحبه شزراً .

قال : فما الذي باعدَ بينَك وبينه ؟

قال : خِفتُه على شَرفي وخافني على مثله .

قال : فأي شيء كان له عندك ؟

قال : اسوءه حاضراً وأسرُّه غائباً .

قال : يا أبا عثمان ، تركتَنا في هذه الحروب .

قال : حملتَ الثِّقلَ وكُفِيتَ الحزم .

قال : فما أبطأ بك ؟

قال : غِناك عني أبطأني عنك ، وكنتُ قريباً ، لو دعوتَ لأجبناك ، ولو أمرتَ لأطعناك .

قال : ذلك ظَنُّنا بك .

فأقبل معاوية على أهلِ الشام ، فقال : يا أهلَ الشام ، هؤلاء قومي وهذا كلامهم .

ثم قال : أخبرني عن مالِكَ ، فقد نُبِّئتُ أنك تتحرّى فيه .

قال : يا أميرَ المؤمنين ، لنا مالٌ يخرُجُ لنا منه فَضْل ، فإذا كان ما خرجَ قليلًا أنفقناه على قلّتِه ، وإن كان كثيراً فكذلك ، غيرَ أنّا لا نَدَّخِرُ منه شيئاً عن مُعسِرٍ ، ولا طالبٍ ، ولا مستحمِلٍ ، ولا نَستأثرُ منه بفِلذة لحمٍ ، ولا مُزْعةِ شَحْم .

قال : فكم يدوم لك هذا ؟

قال : من السنةِ نصفَها .

قال : فما تصنَعُ في باقيها ؟

قال : نجدُ من يُسلِّفُنا ويُسارعُ الى مُعاملتِنا .

قال : ما أحد أحوجُ الى أن يُصلَح من شأنِه منك .

قال : إنَّ شأنَنا لصالحٌ يا أمير المؤمنين ، ولو زِدْتُ في مالي مثلَه ما كنتُ إلاَّ بمثلِ هذه الحال .

فأمر له معاوية بخمسين ألفَ درهم ، وقال : اشترِ بها ضَيعةً تُعينُك على مُروءتِك .

فقال سعيد : بل أشتري بها حَمداً وذِكراً باقياً ، أُطعِمُ بها الجائع ، وأزوِّجُ بها الأيِّمَ ، وأفُكُّ بها العاني ، وأواسي بها الصديقَ ، وأُصلِحُ بها حال الجار .

فلم تأتِ عليه ثلاثةُ أشهرٍ وعنده منها دِرهم . فقال معاوية : ما فضيلةٌ بعد الايمان باللهِ هي أرفع في الذِّكر ، ولا أنبهُ في الشَّرَف من الجُودِ ، وحَسبُك أنَّ الله تبارك وتعالى جعل الجُودَ إحدى صِفاتِه .

•

ومن جودِه أيضاً ما حكاه الأصمعيّ ، قال : كان سَعيدُ ابنُ العاصِ يَسْمُرُ معه سُمّارُه إلى أن يَنقضِيَ حينٌ من الليلِ ، فانصرفَ عنه القومُ ليلةً ورجلٌ قاعدٌ لم يَقُم ، فأمرَ سَعيدٌ بإطفاءِ الشَّمعةِ وقال : حاجتَك يا فتى ؟

فذكر أنّ عليه ديناً أربعةَ آلاف درهم ، فأمر له بها . وكان إطفاؤه للشمعةِ أكثرَ من عطائه .

•

ومن جود عُبيد الله بن أبي بَكْرةَ : أنه أدْلى إليه رجلٌ بحُرْمةٍ ، فأمرَ له بمائةِ ألفِ درْهمٍ ، فقال : أصلحَك الله ، ما وصلني أحدٌ بمثلِها قطُّ ، ولقد قطعتُ لساني عن شُكْرِ غيرك ، وما رأيتُ الدنيا في يَدِ أحدٍ أحسنَ منها في يدِك ، ولولا أنتَ لم تبقَ لها بَهْجةٌ إلا أظلَمت ، ولا نورٌ إلا انْطَمَس .

•

ومن جودِ عُبيدِ الله بن مَعْمرٍ القُرشيّ : أنّ رجلًا أتاه من أهلِ البَصْرةِ ، كانت له جاريةٌ نَفيسةٌ قد أدّبها بأنواعِ الأدبِ حتى بَرَعت وفاقَت في جميعِ ذلك ، ثم إنّ الدهرَ قَعد بسيّدِها ومالَ عليه . وقَدِمَ عُبيدُ الله بن مَعمرٍ البصرة من بعضِ وُجوهِه ، فقالت لسيّدها : إنّي أريدُ أن أذكُرَ لك شيئاً أستحي منه ، إذ فيه جَفاءٌ منّي ، غيرَ أنه يُسهّلُ ذلك عليّ ما أرى من ضيقِ حالِك ، وقلّةِ مالِك ، وزَوالِ نِعْمتِك ، وما أخافُه عليك من الاحتياجِ وضيقِ الحال ، وهذا عبيدُ الله بنُ مَعمرٍ قَدِمَ البصرةَ ، وقد علمتَ شرفَه وفضلَه وسَعةَ كفّه وجودَ نفسه ، فلو أذِنتَ لي فأصلحتُ

من شأني ، ثم تقدمتَ بي إليه وعرضتني عليه هديةً ، رجوتُ أن يأتيك من مكافأته ما يُقيلك الله به وينهضك إن شاء الله.

قال : فبكى وجْداً عليها وجزَعاً لفراقها منه ، ثم قال لها : لولا أنك نطقتِ بهذا ما ابتدأتُكِ به أبداً . ثم نهضَ بها حتى أوقفها بين يدي عُبيدِ الله ، فقال : أعزّك اللهُ ، هذه جاريةٌ ربّيْتُها ورَضيتُ بها لك فاقبلْها منّي هديّةً .

فقال : مثلي لا يَستهدي من مثلِك ، فهل لك في بيعِها ، فأجزِلَ لك الثمنَ عليها حتى ترضى ؟

قال : الذي تَراه .

قال : يُقنعُك مني عشرُ بِدَرٍ في كل بَدْرةٍ عشرةُ آلاف دِرهم ؟

قال : والله يا سيدي ما امتدّ أملي إلى عُشرِ ما ذكرت ، ولكن هذا فَضلُك المعروفُ ، وجودُك المشهور .

فأمر عُبيدُ الله بإخراجِ المال حتى صارَ بين يدي الرجلِ وقَبَضه ، وقال للجارية : ادخلي الحِجاب .

فقال سيدها : أعزّك الله ، لو أذِنتَ لي في وَداعِها ؟

قال : نعم .

فوقَفَت وقامَ ، وقال لها وعيناه تَدْمعان :

أبوحُ بحُزْنٍ من فِراقكِ موجِعٍ ،
أُقاسي به ليلًا يُطيـــلُ تفكُّري

ولولا قعودُ الدهرِ بي عنكِ ، لم يكُن
يُفرِّقُنا شيءٌ سوى الموتِ ، فاعذُري

عليكِ سلامٌ لا زيارةَ بيننـــا ،
ولا وصلَ إلا أن يَشاء ابنُ مَعمرِ

قال عُبيد الله بن مَعمر : قد شئتُ ذلك ، فَخُذْ جاريتَك ، وبارَك الله لك في المال .

فذهب بجاريتِه ومالِه ، فعادَ غنيّاً .

•

فهؤلاءِ أجوادُ الإسلام المشهورون في الجودِ المَنسوبون إليه ، وهم أحدَ عشرَ رجلًا كما ذكرنا وسمَّينا ، وبعدَهم طبقـــةٌ أخرى من الأجوادِ ، قد شُهروا بالجودِ ، وعُرفوا بالكرمِ ، وحُمِدَت أفعالُهم ، وسنذكُر ما أمكننا ذكرُه منها إن شاء الله تعالى .

الطبقة الثانية من الاجواد

فمنهم الحكم بن حنطب . قيلَ لنُصيبِ بن رَباحٍ : خرِفَ شِعرُك أبا مِحْجَن ؛ قال : لا ، ولكن خَرِفَ الكرمُ ، لقد رأيتُني ومدحتُ الحَكَم بن حَنطب ، فأعطاني ألفَ دينار ومائة ناقة وأربعمائة شاة .

•

وسأل أعرابيّ الحَكَم بن حنطب ، فأعطاه خمسمائة دينار ؛ فبكى الأعرابيّ ؛ فقال : ما يُبكيك يا أعرابيّ ؟ لعلّك استَقْللتَ ما أعطيناك ؟ قال : لا والله ، ولكني أبكي لما تأكلُ الأرضُ منك . ثم انشأ يقول :

وكأنّ آدمَ ، حينَ حانَ وَفاتُه ، أوصاكَ ، وهو يجُود بالحَوباءِ[1]

ببَنيه أن ترعاهمُ فرَعيتَهم ، وكَفَيْتَ آدمَ عَيْلةَ الأبناءِ

•

العُتبيّ قال : أخبرني رجلٌ من أهل مَنْبِجَ ، قال : قدِمَ علينا الحكمُ بن حَنْطب وهو مُملِقٌ فأغنانا ؛ قال له : كيفَ أغناكم وهو مُملِقٌ ؟ قال : علّمنا المكارمَ فعادَ غنيُّنا على فقيرنا .

•

---

١ الحوباء : النفس .

ومنهم معن بن زائدة . وكان يقالُ فيه : حَدِّث عن البحر ولا حَرَجَ ، وحدِّث عن مَعنٍ ولا حَرَجَ . وأتاه رجلٌ يسأله أن يحمِله ، فقال : يا غلام ، أعطِه فَرساً وبِرْذوناً وبغلًا وعَيراً وبَعيراً ، وقال : لو عرفتُ مَرْكوباً غيرَ هذه لأعطيتُك .

•

المُتبيّ قال : لمّا قَدِم مَعْنُ بن زائدة البَصرةَ واجتمع إليه الناس، أتاه مَروانُ بن أبي حَفْصة فأخذ بعِضادتَي الباب[1]، فأنشده شعره الذي قال فيه :

فما أحجمَ الأعداءُ عنك بَقيّةً
عليك ، ولكن لم يروا فيكَ مَطْمعا

له راحتانِ الحتفُ والجودُ فيهما ،
أبى اللهُ إلاّ أن يَضُرّ وينفعا

•

ومنهم يزيد بن المُهلَّب . وكان هِشامُ بنُ حسّانَ إذا ذكَره قال : واللهِ إن كانت السُّفُنُ لَتَجْري في جُودِه .

وقيل ليزيدَ بن المُهلَّب : ما لك لا تبني داراً؟ قال: منزلي دارُ الإمارةِ أو الحَبْس .

•

---

١ عضادتا الباب : خشبتان من جانبيه .

ولما أُتي يزيدُ بن عبد الملك برأسِ يزيدَ بن المهلَّب نال منه بعضُ جُلسائِه ، فقال له : مَهْ ! إنَّ يزيدَ بن المهلَّب طلبَ جَسيماً ، وركِبَ عظيماً ، ومات كريماً .

•

ودخل الفرزدقُ على يزيدَ بن المهلَّب في الحبس فأنشده :

صَحَّ في قَيدِكَ السماحةُ والجود ،
وفَكُّ العُناةِ والإفضالُ

قال : أتمدحني وأنا في هذه الحال ؟ قال : أصبتُك رخيصاً فاشتريتُك . فأمر له بعشرة آلاف .

•

وقال سُليمان بن عبد الملك لموسى بن نُصير : اغرَم دِيَتَك خمسين مرةً .

قال : ليس عندي ما أغرَمُ .

قال : والله لتغرَمنَّ دِيَتَك مائة مرة .

قال يزيدُ بن المُهلَّب : أنا أغرَمُها عنه يا أمير المؤمنين .

قال : اغرَم .

فغَرمها عنه مائةَ ألفٍ .

•

العُتبيّ قال : أخبرني عوانةُ قال :

استعمل الوليدُ بن عبد الملك عثمانَ بنَ حيّان المُرّيَّ على المدينة وأمره بالغِلظةِ على أهل الظِّنّة ، فلمّا استُخْلِفَ سليمانُ أخذه بألفي ألف درهم . فاجتمعت القيسيّةُ في ذلك ، فتحمّلوا شَطْرَها وضاقوا ذَرْعاً بالشَّطرِ الثاني ، ووافق ذلك استعمالُ سليمان يزيدَ بن المهلَّب على العراق. فقال عمرُ بن هُبيرة: عليكم بيزيدَ بن المُهلَّب ، فما لها أحدٌ غيره .

فتحمّلوا الى يزيدَ وفيهم عُمرُ بن هُبيرة ، والقَعقاعُ ابن حَبيب ، والهُذيلُ بن زُفَر بن الحارثِ ، وانتَهوا إلى رُواقِ يزيد .

قال يحيى بن أفْتل ، وكان حاجباً ليزيد بن المهلَّب ، وكان رجلاً من الأزد: فاستأذنت لهم ، فخرج يزيدُ الى الرُّواقِ فقرَّب ورحَّب ، ثم دعا بالغَداءِ ، فأتوا بطعام ما أنكروا منه أكثرَ مما عرَفوا . فلما تغدَّوا ، تكلم عثمان بن حيّان ، وكان لَسِناً مُفوّهاً ، وقال : زادك الله في توفيقِك أيها الأمير ، ان الوليد بن عبد الملك وجَّهني الى المدينة عاملاً عليها وأمرني بالغلظةِ على أهل الظِّنّة والأخذ عليهم ، وان سليمان أغرمني غرماً ، والله ما يَسعُه مالي ولا تحمِلُه طاقتي ، فأتيناك لتَحْمِلَ من هذا المال ما خف عليك ، وما بقي والله ثَقيلٌ عليّ .

ثم تكلم كلّ منهم بما حضره ، وقد اختصرنا كلامهم . فقال يزيد بن المهلب : مَرحباً بكم وأهلاً ، إن خيرَ المال ما قُضِيَت فيه الحقوق ، وحُمِلت به المغارمُ . وإنما لي من المال ما فضُلَ عن إخواني ، وايم اللهِ ، لو علمتُ أن أحداً أَملأ بحاجتكم مني لهديتُكم اليه ؛ فاحتكموا وأكثروا .

فقال عثمانُ بن حَيّان : النِّصفُ ، أَصلحَ الله الأميرَ .

قال : نعَم وكرامةٌ ، اغدوا على مالِكم فخذوه .

فشكروا له وقاموا فخرجوا . فلما صاروا على باب السُّرادق ، قال عُمر بن هُبيرةَ : قَبَّحَ الله رأيكم ! والله ما يبالي يزيدُ أنِصفَها تحمَّل أم كلَّها ، فمن لكم بالنصف الباقي ؟

قال القوم : هذا والله الرأيُ .

وسمع يزيدُ مناجاتهم ، فقالَ لحاجبه : انظر يا يحيى إن كان بَقي على القومِ شيءٌ فليرجعوا .

فرجعوا اليه ، وقالوا : أَقِلنا .

قال : قد فعلتُ .

قالوا : فإن رأيتَ أن تحمِلَها كُلَّها فأنت أهلُها ، وإن أبَيت فما لها أحدٌ غيرك .

قال : قد فعلتُ .

وغدا يزيد بن المهلب الى سليمان ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أتاني عثمان بن حيّان وأصحابه .

قال : أُمْسِكَ في المال ؟

قال : نعم .

قال سليمان : والله لآخذنّه منهم .

قال يزيد : إني قد حملته .

قال : فأدِّه .

قال يزيد : والله ما حملته إلا لأؤدّيَه ؛ ثم قال : يا أميرَ المؤمنين ، إن هذه الحَمالةَ وإن عظُم خطبُها ، فَحَمْدُها واللهِ أعظمُ منها ، ويَدي مبسوطةٌ بيدِك ، فابسُطها لسؤّالها .

ثم غدا يزيدُ بالمالِ على الخُزّانِ فدفَعه إليهم . فدخلوا على سليمانَ فأخبروه بقَبضِ المال ؛ فقال : وَفَت يمينُ سليمان ، احمِلوا إلى أبي خالدٍ مالَه ؛ فقالَ عديُّ بن الرّقاع العامليّ :

ولله عَيْنا مَن رأى كحَمالةٍ ، تَحمَّلها كبْشُ العِراقِ يزيدُ

•

الأصمعيّ قال : قدِمَ على يزيدَ بن المُهلَّب قومٌ من قُضاعةَ من بني ضِنَّة ، فقال رجلٌ منهم :

واللهِ ما نَدْري ، إذا ما فاتَنا
طَلبٌ إليك ، من الذي نَتطلَّبُ

ولقد ضَرَبنا في البلاد ، فلم نَجِدْ
أحداً سواكَ إلى المَكارمِ يُنسَبُ

فاصبِرْ لعادتنا ، التي عوَّدتنا ،
أو لاَ فأرْشِدْنا إلى من نَذْهبُ

فأمر له بألف دينار . فلما كان في العام المُقبل وفد عليه فقال :

ما لي أرى أبوابَهم مَهْجورةً ،
وكأنَّ بابَك مَجْمَعُ الأسواقِ ؟

حابوك أم هابوك أم شامُوا النَّدَى
بيَدَيك ، فاجتمعُوا من الآفاقِ ؟

إنّي رأيتُك للمكارمِ عاشِقاً ؛
والمَكْرُماتُ قليلةُ العُشّاقِ

فأمر له بعشرة آلاف دِرْهم .

•

ومَرَّ يزيدُ بن المُهلَّب في طريق البَصرة بأعرابية فأهدت اليه عَنزاً فقبِلها ، وقال لابنه معاوية : ما عندك من نفقة ؟

قال : ثمانمائة درهم .

قال : ادفعها اليها .

قال : إنها لا تَعْرِفُك ويُرضيها اليسير .

قال : إن كانت لا تَعْرفني ، فأنا أعرفُ نفسي ، وإن كان يُرضيها اليسيرُ ، فأنا لا أرضَى إلا بالكثير .

•

ومنهم يزيد بن حاتم . وكتب اليه رجلٌ من العُلماء يَستوصله ، فبعث اليه بثلاثينَ ألف دِرْهم ، وكتب اليه : أما بعدُ ، فقد بَعثتُ اليك بثلاثين ألفاً لا أُكثّرها امتناناً ، ولا أُقلّلها تجبُّراً ، ولا أَستثيبُك عليها ثَناءً ، ولا أقطعُ لك بها رجاء ، والسلام .

•

وكان ربيعة الرَّقّي قد قدم مصرَ فأتى يزيدَ بن حاتم الأزدي فلم يُعطِه شيئاً ، فخرج وهو يقول :

أَراني ، ولا كُفْرانَ للهِ ، راجعاً
بخُفَّيْ حُنَينٍ من نَوالِ ابنِ حاتمِ

فسألَ عنه يزيدُ ، فأخبِرَ أنه قد خرَجَ ، وقال كذا ، وأُنشِدَ البيتَ ؛ فأرسل في طَلَبه ، فأُتِيَ به ، فقال : كيفَ قلتَ ؟

فأنشدَه البيتَ .

فقال : شُغِلنا عنك .

ثم أمر بخُفَّيه فخُلعا من رِجلَيه ومُلِئا مالاً ، وقال : ارجِع بهما بدلاً من خُفَّي حُنين .

فقال فيه لمّا عُزِل عن مصر وولّي مكانَه يزيدُ ابن أُسَيْد :

بَكى أهلُ مصرٍ بالدُّموع السَّواجِمِ ،
غداةَ غدا منها الأغرُّ ابنُ حاتِمِ

وفيها يقول :

لَشتّانَ ما بَينَ اليَزيديْنِ ، في النّدى:
يزيدِ سُلَيمٍ والاغرِّ ابنِ حاتِم

فهَمُّ الفتى الأزْدِيِّ إتلافُ مالِه ؛
وهَمُّ الفتى القَيْسيِّ جَمْعُ الدَّراهم

فلا يَحسبِ التَّمْتامُ أني هَجوتُه ،
ولكنَّني فضَّلتُ أهلَ المَكارم

•

وخرجَ إليه رجلٌ منَ الشعراءِ يَمدحُه ، فلما بلغَ مصرَ وجدَه قد مات ، فقال فيه :

لئِن مصرُ فاتَتْني بما كنتُ أرْتجي ،
وأخلَفني منها الذي كنتُ آمُلُ

فما كلُّ ما يخشى الفتى بمُصيبِه ؛
ولا كلُّ ما يَرجو الفتى هُوَ نائلُ

وما كان بَيْني ، لو لقيتُك سالماً ،
وبينَ الغِنى إلاّ ليالٍ قلائلُ

•

ومنهم أبو دُلَف واسمُه القاسم بنُ إسماعيل ، وفيه يقول عليُّ بن جَبلة :

إنّما الدُّنيا أبو دُلَفٍ ، بَين مَبْداهُ ومحْتَضَرِهْ
فإذا ولّى أبو دُلَفٍ ، ولّتِ الدُّنيا على أثرِه

•

وقال فيه رجلٌ من شعراء الكوفة :

الله أجرى منَ الأرزاقِ أكثرَها ،
على العِباد ، على كَفَّيْ أبي دُلَفِ

بارى الرياحَ فأعطى ، وهي جاريَةٌ ،
حتى إذا وقَفتْ أعطى ولم يَقِفِ

ما خَطّ «لا» كاتباه في صَحيفته ،
يوماً ، كما خُطّ «لا» في سائرِ الصُّحفِ

فأعطاه ثلاثين ألفاً .

•

ومدحه آخرُ فقال له :

يُشْبِهُهُ الرعدُ ، إذا الرعدُ رَجَفْ ،
كأنّه البرقُ ، إذا البرقُ خَطَفْ

كأنّـه الموتُ ، إذا الموتُ أزِف ،
تَحْمِلُه الى الوغَى الخيلُ القُطُف[1]

إنْ سارَ سارَ المجدُ ، أو حَلَّ وقَف ،
انظُر بعَيْنيـك الى أسنى الشَّرَفْ

هـل نالَه بقُدْرةٍ ، أو بكُلَف ،
خَلْقٌ من الناس سِوى أبي دُلَفْ ؟

فأعطاه خمسين ألفاً .

•

ومن أخبـــار معن بن زائدة ، قال شَراحيل بن مَعْن ابن زائدة :

حَجَّ هارونُ الرشيدُ وزميلُه أبو يوسف القاضي ، وكنتُ كثيراً ما أُسايرُه ، إذ عَرضَ له أعرابيّ من بني أَسَدٍ فأنشدَه شِعْراً مدَحه فيه وأفْرَط ؛ فقال له هارون : ألم أنْهَكَ عن مثلِ هـذا في مَدْحِك يا أخا بني أسد ؟ إذا قلتَ فينا فقُـل كقولِ القائل في أبي هذا :

بنو مَطَرٍ يومَ اللقـاء ، كأنّـهم
أُسودٌ ، لها في غِيـل خَفّانَ أشبُلُ

---

١ أزف : قرب . القطف ، واحدها قطوف : الفرس تقارب الخطو في سرعة .

هُمُ يَمنعون الجـــارَ ، حتى كأنما
لجارِهمُ ، بين السّماكين ، مَنزِلُ

بَهاليلُ في الاسلام سادُوا ، ولم يكُن
كأوّلِهم في الجاهليّـــة أوّلُ[1]

وما يَستطيـع الفاعلون فَعالَهم ،
وإن أحسنُوا في النّائباتِ وأجْمَلُوا

هُمُ القومُ ، إن قالوا أصابُوا ، وإن دُعُوا
أجابوا ، وإن أعطَوْا أطابوا وأجْزَلوا

•

ومنهم خالد بن عبـــد الله القَسْريّ ، وهو الذي يقول فيه الشاعر :

الى خـالدٍ ، حتى أنَخْنَ بخـالد ،
فنِعْمَ الفتَى يُرْجَى ، ونِعْمَ المُؤمَّلُ

•

بينا خالدُ بن عبـد الله القَسْريّ جالسٌ في مِظلّةٍ له إذ نظَر الى أعرابيّ يَخُبّ به بعيرُه مُقبِلًا نحوه ، فقال لحاجبِه : إذا قَدِمَ فلا تَحْجُبْهُ . فلما قَدِمَ أدخَله عليه ، فسلّم وقال :

أصلحَكَ اللهُ ! قَلّ ما بيدي ، فما أُطيقُ العِيالَ ، إذ كَثُروا

---

١ البهاليل ، واحدها بهلول : السيد الجامع لكل خير .

أناخَ دهرٌ ألقى بكَلْكَلِه ، فأرسلُوني إليك وانتظروا

فقال خالد : أرسلوك وانتظروا ؟ والله لا تنزِلُ حتى تنصرِفَ إليهم بما يَسُرُّهم ؛ وأمر له بجائزة عظيمةٍ وكُسوة شريفة .

•

ومنهم عدي بن حاتم . دخل عليه ابنُ دارةَ فقال : إني مدحتُك ؛ قال : أمسِكْ حتى آتيَك بمالي ، ثم امدَحْني على حَسبِه ، فإني أكرَه أن لا أعطيَك ثمنَ ما تقولُ ، لي ألفُ شاةٍ وألفُ دِرهمٍ وثلاثة أعْبُدٍ وثلاثُ إماءٍ وفَرَسي هذا حُبِس في سبيل الله ، فامدَحْني على حَسب ما أخبرتُك ؛ فقال :

تَحِنُّ قَلوصي في مَعَدٍّ ، وإنما
تُلاقي الربيعَ في ديار بني ثُعَلْ

وأبقى الليالي من عديِّ بن حاتمٍ
حُساماً ، كنَصْلِ السيفِ سُلَّ من الخِلل[1]

أبوكَ جوادٌ لا يُشَقُّ غُباره ؛
وأنت جوادٌ ما تَعذَّرُ بالعِلَلْ

فإن تَتّقوا شرًّا ، فمثلكمُ اتّقى ؛
وإن تفعلوا خيراً ، فمثلُكمُ فَعَلْ

قال له عَدِيّ : أمسِك ، لا يبلُغُ مالي أكثرَ من هذا .

---

١ الخلل ، واحدتها خلة : جفن السيف المغشى بالأدم .

اصفاد الملوك على المدح

سعيد بن مُسلم الباهليّ قال :

قدم على الرشيد أعرابيّ من باهلةَ وعليه جُبّةٌ حَبِرة ورِداءٌ يَمانٍ ، قد شدّه على وسطِه ، ثم ثناه على عاتقِه ، وعمامتُه قد عَصَبها على فَوْدَيْه ، وأرخى لها عَذَبةً من خلْفِه ، فمَثَل بين يدي الرشيد ؛ فقال سعيد : يا أعرابي ، خُذْ في شرفِ أمير المؤمنين .

فاندفع في شعره ؛ فقال الرشيد : يا أعرابي ، أسمعُك مُستحسناً وأُنكِرُك مُتَّهِماً ، فقل لنا بيتين في هذين ، يعني محمداً الأمينَ وعبدَ الله المأمونَ ابنيه وهما عن حِفافَيه .

فقال : يا أمير المؤمنين ، حَمَلْتَني على الوَعْر القَرْدد[1] ، ورجَعْتَني عن السَّهل الجَدَد[2] . رَوعةُ الخِلافةِ ، وبُهْرُ الدَّرجةِ ، ونُفورُ القَوافي على البديهةِ ، فأرْوِني تتألّف لي نوافرُها ، ويَسْكُن روعي .

---

١ القردد : ما ارتفع وغلظ من الأرض .

٢ الجدد : الارض الغليظة .

قال : قد فعلتُ ، وجعلتُ اعتذارَك بدلاً من امتحانِك .

قال : يا أميرَ المؤمنين ، نَفَّستَ الخِناقَ ، وسَهَّلتَ مَيْدانَ السِّباق ، فأنشأ يقول :

بَنَيتَ لعَبْدِ الله ثم محمّد
ذُرَى قُبَّةِ الإسلام ، فاخضرَّ عودُها

هما طُنُباها ، بارَكَ اللهُ فيهما ،
وأنتَ أميرَ المؤمنين عَمودُها[1]

فقال الرشيد : وأنتَ يا أعرابيُّ ، بارَكَ الله فيك ، فسَلْ ولا تكُن مسألتُك دونَ إحسانِك .

قال : الهُنَيْدة[2] يا أميرَ المؤمنين .

فأمر له بمائة ناقةٍ وسَبْعِ خِلَع .

•

وقال مروانُ بن أبي حفصة : دخلتُ على المهديّ فاستنشدني ؛ فأنشدته الشعر الذي أقول فيه :

طَرقَتْكَ زائرةٌ ، فحيَّ خيالَها ، بيضاءُ تَخْلِط بالحَياءِ دَلالَها

قادتْ فؤادَكَ فاستقادَ ، ومثلُها قادَ القلوبَ إلى الصِّبا فأمالَها

---

١ الطنب : حبل طويل يشد به سرادق البيت ، أو هو الوتد .

٢ الهنيدة : اسم للمائة من الابل ، أو لما فوقها ودونها ، أو للمائتين .

حتى انتهيتُ إلى قولي :

شَهِدَتْ من الأنفالِ آخرُ آيةٍ بتُراثِهم ، فأردتمُ إبطالهَا

أو تجحدون مقالةً عنْ ربِّكم ، جبريلُ بلَّغها النبيَّ ، فقالهَا ؟

هل تَطمِسون من السماء نُجومَها بأكفِّكم أو تَستُرون هِلالهَا ؟

قال : وأنشدتُه أيضاً شِعري الذي أقول فيه :

يابنَ الذي ورِثَ النبيَّ محمداً ،
دون الأقارب من ذَوي الأرْحامِ

الوَحْيُ بين بَني البَناتِ وبينَكم ،
قُطِعَ الخِصامُ فلاتَ حينَ خِصامِ

ما للنساءِ مع الرِّجالِ فريضةٌ ،
نَزَلَتْ بذلك سورةُ الأنعامِ

أنّى يكونُ ، وليس ذاك بكائنٍ ،
لبَني البناتِ وراثةُ الأعمامِ ؟

ألغى سهامَهمُ الكتابُ ، فحاوَلوا
أن يشْرَعوا فيها بغيرِ سِهامِ

ظَفِرتْ بنو ساقي الحَجيجِ بحقِّهم ،
وغُرِرتُمُ بتَوَهُّمِ الأحلامِ

قال مروان بن أبي حفصة: فلما أنشدتُ المهديّ الشعرين، قال: وجَب حقُّك على هؤلاء، وعنده جماعةٌ من أهل بيته، قد أمرتُ لك بثلاثين ألفاً، وفرضتُ على موسى خمسةَ آلاف، وعلى هارونَ مثلَها، وعلى عليّ أربعة آلاف، وعلى العبّاسِ كذا، وعلى فلانٍ كذا، فحسَبتُ سبعين ألفاً.

قال: فأمرَ بالثلاثين ألفاً فأتي بها، ثم قال: اغدُ على هؤلاء، وخُذ ما فرضتُ لك.

فأتيْت موسى، فأمر لي بخمسةِ آلافٍ، وأتيت هارونَ، فأمر لي بمثلِها، وأتيتُ عليًّا، قال: قَصَّر بي دونَ إخوتي فلن أُقصِّرَ بنفسي، فأمر لي بخمسةِ آلافٍ؛ فأخذتُ من الباقين سبعين ألفاً.

•

ودخل أعشى رَبيعةَ على عبدِ الملك بن مروانَ وعن يمينِه الوليدُ، وعن يَسارِه سُليمان؛ فقال له عبد الملك: ماذا بَقي يا أبا المُغيرةِ؟

قال: مضى ما مضى وبقي ما بَقي؛ وأنشأ يقول:

وما أنا في حَقّي؛ ولا في خُصومتي،
بمُنْتَضَمٍ حقّي، ولا قارعٍ سِنّي

ولا مُسْلِمٍ مَولايَ من سُوء ما جنى،
ولا خائفٌ مولاي من سُوء ما أجنِي

وفَضْلِيَ في الأقوال والشعرِ أنّني
أقولُ الذي أعنِي، وأعرِفُ ما أعني

وأنَّ فؤادي، بين جَنبيَّ، عالمٌ
بما أبصَرتْ عَيْني وما سَمِعَتْ أُذني

وأنّي، وإن فَضّلتُ مَروانَ وابنَه
على الناس، قد فَضّلتُ خيرَ أبٍ وابنِ

فضحِكَ عبدُ الملك، وقال للوليد وسليمان: أتلومانني على هذا؟ وأمر له بعشرة آلاف.

•

العُتبيّ قال: دخل الفَرزدق على عبد الرحمن ابن أُم الحَكم، فقال له عبدُ الرحمن: أبا فِراس، دَعْني من شعرِك الذي لا يأتي آخرُه حتى يُنسى أوّلُه، وقُل فيَّ بيتَين يَعْقِلان أفواهَ الرُّواة وأُعطِيكَها عطيّةً لم يُعْطِكَها أحدٌ قبلي.

فغدا عليه وهو يقول:

وأنت ابنُ بَطحاوَيْ قُريشٍ، فإن تشأ
تكُنْ في ثَقيفٍ سَيْلَ ذي حَدَبٍ غَمرِ[1]

---

١ بطحاوي قريش: اراد قريش البطحاء، سمي بذلك الذين كانوا ينزلون الشعب بين اخشبي مكة، وسمي الذين كانوا ينزلون خارجه بقريش الظواهر. الحدب: الحدور في صبب.

وأنت ابنُ فَرْعٍ ماجدٍ ، لِعَقِيلةٍ
تَلقَّت له الشمسُ المُضيئةُ بالبَدْرِ

قال : أحسنت ! وأمر له بعشرة آلاف .

•

أبو سُويد قال : أخبرني الكُوفيّ قال :

اعترض الفضلَ بنَ يحيى بن خالد في وقت خُروجه الى خُراسان فتىً من التجّار كان شَخَص الى الكوفة ، فقُطِع به وأُخِذ جميعُ ما كان معه ، فأخذ بعِنان دابّة الفضل وقال :

سأرسِل بَيتاً ، ليس في الشّعر مثلُه ،
يُقطّع أعناقَ البُيوت الشّواردِ

أقام النّدى والبأسُ في كلّ منزل ،
أقامَ به الفضلُ بن يحيى بن خالدِ

قال : فأمر له بمائة ألف دِرهم .

•

العُتبيّ : قال أبو الجَنوب مَروان بنُ أبي حَفْصَة أبياتاً ورفعها الى زُبيدة ابنة جعفر يمتدح ابنها محمداً وفيها يقول :

لله دَرُّكِ يا عَقيلةَ جَعفر ،
ماذا ولَدتِ من العُلا والسُّؤددِ !

إنّ الخلافةَ قد تبيَّنَ نُورُها،
للناظرينَ، على جَبينِ مُحَمَّدِ

فأمرتُ أن يُملأ فمُه دُرًّا.

•

وقال الحسنُ بن رجاء الكاتب: قدِم علينا عليُّ بن جَبَلةَ إلى عَسكر الحسنِ بن سَهل والمأمون هناك بانياً على خديجةَ ابنةِ الحسن بن سهل، المعروفةِ ببُوران، ونحنُ إذ ذاك نُجري على نيّفٍ وسبعين ألف فلاح، وكان الحسن بن سهل مع المأمون يتصبَّحُ، فكان الحسنُ يجلسُ للناس الى وقت انتباهه. فلما قدِمَ عليُّ بن جَبَلة نزل بي، فقلت له: قد قوي شُغلُ الأمير.

قال: إذاً لا أضيعُ معَك.

قلت: أجَلْ.

فدخلت على الحسن بن سهل في وقت ظُهوره فأعلمتُه مكانه؛ فقال: ألا ترى ما نحنُ فيه؟

قلت: لستَ بمشغُول عن الأمر له.

فقال: يُعطَى عشرة آلافٍ الى أن نتفرَّغ له.

فأعلمت عليَّ بن جبلة؛ فقال في كلمة له:

أعطيتَني يا وَليَّ الحقِّ، مُبتدئاً،
عطيّةً كافأت حَمْدي ولم تَرَني

ما شِمتُ برقَكَ حتى نِلتُ رَيِّقه،
كأنما كنتَ بالجَدْوى تُبادرُني

•

عرض رجلٌ لابن طَوْقٍ ، وقد خرج متنزّهاً في الرّحبة ، فناوله رقعةً فيها جميعُ حاجته ، فاخذها فإذا فيها :

جعلتُك دُنيايَ ، فإن أنتَ جُدْتَ لي
بخَيْرٍ ، وإلا فالسَّلامُ على الدُّنيا

فقال : والله لأصدّقنّ ظنّك ؛ فأعطاه حتى أغناه .

•

عرض دِعبلُ بن عليّ الشاعرُ لعبد الله بن طاهر الخُراساني، وهو راكبٌ في حَرّاقة له في دجلة ، فأشار اليه برُقعةٍ ، فأمر بأخذها فإذا فيها :

عَجِبتُ لحَرّاقةِ ابْنِ الحُسَيْن، كيفَ تَسيرُ ولا تَغْرَقُ
وبحرانِ : من تحتِها واحدٌ وآخرُ من فَوْقِها مُطْبِقُ
وأعجبُ من ذاكَ عِيدانُها، إذا مَسَّها كيف لا تُورِقُ

فأمر له بخمسة آلاف دِرهم وجارية وفرسٍ .

•

وخرج عبد الله بن طاهر ، فتلقّاه دعبل برقعة فيها :

طَلعتْ قَناتُك بالسَّعادة فوقَها ،
مَعْقودةً بلواءِ مُلْكٍ مُقْبلِ [1]

تَهتزُّ فوقَ طَرِيدتَيْن ، كأنما
تَهفُو يُقَصُّ لها جَناحا أجْدلِ

رَبِحَ البَخيلُ ، على احتيالٍ ، عِرضَه
بِنَدَى يدَيْك ، ووَجْهِكَ المتهلّلِ

لو كانَ يَعلمُ أنَّ نَيْلَك عاجلٌ ،
ما فاض منه جَدْوَلٌ في جَدْولِ

فأمر له بخمسة آلاف .

•

ووقف رجلٌ من الشعراء إلى عبد الله بن طاهر فأنشده :

إذا قيلَ : أيّ فتىً تَعلمون أهشُّ إلى البَأس والنّائلِ
وأضربَ للهامِ يومَ الوغى ، وأطْعمَ في الزّمن المَاحِلِ ؟
أشارَ إليك جميعُ الأنام ، إشارةَ غَرْفَى إلى ساحلِ

فأمر له بخمسين ألف درهم .

•

---

١ يريد بالقناة التي يعقد فوقها لواء الأمير .

أحمد بن مُطير قال : أنشدتُ عبدَ الله بنَ طاهرٍ أبياتاً كنتُ مدحتُ بها بعضَ الولاة وهي :

له يومُ بؤسٍ ، فيه للناس أبؤسُ ،
ويومُ نَعيمٍ ، فيه للناسِ أنعُمُ

فيَقْطُرُ يومَ الجود، من كفّه، النّدى ،
ويقطُر يومَ البؤس ، من كفّه ، الدّم

فلو أنّ يومَ البؤس لم يَثْنِ كفّه
عن الناس، لم يُصبِحْ على الأرضِ مُجرِمُ

ولو أنّ يومَ الجود فَرَّغَ كفّه
لبَذْل الندى ، ما كان بالأرضِ مُعدِمُ

فقال لي عبدُ الله : كم أعطاكَ ؟ قلتُ : خمسةَ آلاف ؛ قال : فقَبِلتَها ؟ قلت : نعم ؛ قال لي : أخطأتَ ، ما ثمنُ هذه إلا مائة ألف .

•

ودخل حمّادُ عَجْرَدَ على أبي جعفرٍ بعد موتِ أبي العبّاس أخيه فأنشده :

أتوكَ بعد أبي العبّاس ، إذ بانا ،
يا أكرمَ الناسِ أعراقاً وعيدانا

لو مَجَّ عودٌ على قَومٍ عُصارتَه،
لَمَجَّ عودُك فينا الشهْدَ والبانا

فأمر له بخمسة آلاف درهم .

•

القَحْذَميّ قال : جاء موسى شهوات إلى سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان ، فقال : إنّ هنا جاريةً تعشّقتُها ، وأبَوْا أن يَنقصوني عن مائتي دينار .

فقال : بُورِكَ فيها .

فذهب إلى سعيدِ بن خالد بن أَسِيد ، وأمه عائشة بنت طلحة الطَّلحات ، فدَعا بمِطْرفِ خَزٍّ فبَسطَه وعقَد في كلِّ رُكن من أركانِه مائةَ دينار ، وقال لموسى : خذِ المِطْرَفَ بما فيه ؛ فأخذه ، ثم غدا عليه فأنشده :

أبا خالدٍ ، أَعني سعيدَ بنَ خالدٍ ،
أخا العُرْف، لا أَعْني ابنَ بنْت سَعيدِ[1]

عَميدَ الندى ، ما عاش يَرضى به الندى،
فان ماتَ لم يرضَ الندى بعَميد

---

١ ابن بنت سعيد : سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان، وامه بنت سعيد بن العاص.

دَعُوه دَعُوه ! إنكم قد رَقدتُمُ ،
وما هو عن أحسابِكم برَقودِ

•

العتبي قال : سمعت عمي ينشد لأبي العباس الزُّبيري :

وكلُّ خَليفةٍ ووَليّ عَهْدٍ ، لكُم ، يا آلَ مَرْوانَ ، الفِداءُ
إمارتُكم شِفاءٌ ، حيث كانت ، وبعضُ إمارةِ الأقوامِ داءُ
فأنتم تُحْسِنون اذا مَلَكْتم ، وبعض القوم إن ملكوا أساءوا
أأجعلُكم وغيرَكم سواءً ، وبَيْنَكم وبينَهُمُ الهَواءُ ؟
هُمُ أرضٌ لأرجلِكُم ، وأنتم لأيديهم وأرجلِهم سماءُ

فقلت له : كم أُعطي عليها ؟ قال : عشرين الفاً .

•

الأصمعيّ قال : حدثني رُؤبةُ قال : دخلتُ على أبي مُسلم صاحب الدعوة ، فلما أبصرني نادى : يا رؤبة ! فأجبته :

لَبَّيك ، إذ دعوْتني ، لبَّيكا ! أحمدُ ربّاً ساقَني إليكا
الحمدُ والنِّعمةُ في يَدَيْكا

قال : بل في يدي الله تعالى ؛ قلت له : وأنت إذا أنعمت أجدْت . ثم قلت : يأذنُ لي الأمير في الانشاد ؟ قال : نعم ؛ فأنشدتُه :

مازال يأتي المُلْكَ من أقطارِه، وعن يَمينِه وعن يَسارِهِ
مُشمِّراً لا يُصْطلى بنَارِه، حتى أقرَّ المُلكَ في قَرارِه

فقال : يا رؤبَة إنك أتيتَنا وقد شفَّ المالُ واستنفدَه الإنفاقُ ، وقد أمرنا لك بجائزةٍ وهي تافهة يسيرة ، ومنك العَوْدُ وعلينا المُعَوَّلُ ، والدهرُ أطرقُ مُستَتِبٌّ ، فلا تجعَل بيننا وبينك الأسِدَّة .

قال رُؤبة : فقلت : الذي أفادني الأميرُ من كلامِه أكثرُ من الذي أفادني من ماله .

•

ودخل نُصيب بن رَباح على هِشام فأنشده :

إذا استبقَ الناسُ العُلا سَبَقَتْهمُ
يمينُك ، عَفْواً ، ثم صَلَّت شِمالُكَ[1]

فقال هشام : بلغتَ غايةَ المدح فسَلْني .

فقال : يا أمير المؤمنين ، يداك بالعطيّةِ أطلقُ من لساني بالمسألة .

قال : لا بدَّ أن تفعل ؛ قال : لي ابنة نَفضتُ عليها من سَوادي فكَسَدَها ، فلو أنفقَها أميرُ المؤمنين بشيء يجعلُه لها .

---

١ صلت : تبعت وجاءت تالية .

قال : فأقطعها أرضاً ، وأمر لها بحُلّى وكسوة ، فنفقت السوداءُ .

•

الرّياشيُّ عن الأصمعي قال : مَدحَ نُصيبُ بن رَباحٍ عبدَ الله بن جعفرٍ ، فأمر له بمالٍ كثيرٍ ، وكُسوةٍ شريفةٍ ، ورَواحلَ مُوقَرةٍ بُرًّا وتَمراً ؛ فقيل له : أتفعلُ هذا بمثلِ هذا العبد الأسود ؟

قال : أما لئن كان عبداً إنّ شِعْرَه فيَّ لحُرّ ، ولئن كان أسودَ إنّ ثناءَه لأبيضُ ، وإنما أخذَ مالاً يفنى ، وثياباً تَبْلى ، ورواحلَ تُنضى ؛ وأعطى مديحاً يُرْوى ، وثناء يَبْقى .

•

وذكروا عن أبي النَّجْم العِجليّ أنه أنشَد هِشاماً شعرَه الذي يقول فيه :

الحمدُ للهِ الوهوبِ المُجْزِلِ

وهو من أجودِ شعرِه ، حتى انتهى إلى قوله :

والشمسُ في الجوّ كعَينِ الأحْوَلِ

وكان هشامٌ أحولَ ، فأغضَبه ذلك ، فأمر به فطُرِد . فأمّل أبو النَّجم رَجعتَه ، فكان يأوي إلى المسجد .

فأرق هشامٌ ذاتَ ليلة فقال لحاجبه : ابغِني رجلًا عربياً فَصيحاً يُحدّثني ويُنشدني .

فطلب له ما سأل ، فوجدَ أبا النَّجمِ ، فأتى بـه . فلما دخل عليه قال : أينَ تكونُ منذُ أقْصيناك ؟

قال : حيثُ ألفاني رسولُك .

قال : فمن كانَ ، أبا النجمِ ، أبا مَشواك ؟

قال : رجلين أتغذّى عند أحدهما وأتعشّى عند الآخر .

قال : فما لك من الوَلد ؟ قال : ابنتان .

قال : أزوّجتَهما ؟ قال : زوّجتُ إحداهما .

قال : فبِمَ أوصيتَها ليلة أهديتَها ؟ قال : قلتُ لها :

سُبّي الحَماة وابْهَتي عليها ، وإن أبتْ فازدلفي إليها

ثم اقرعي بالعود مِرْفَقيها ، وجَدّدي الخُلْفَ به عليها

قال : فهل أوصيتَها بعدَ هذا ؟ قال : نعم :

أوصيتُ من بَرّة قلباً بَرّا ، بالكلْبِ خيراً والحماةِ شرّا

لا تَسأمي خَنْقاً لها وجَرّا ، والحَيَّ عُمّيهم بشرٍّ طُرّا

وإن كَسَوْكِ ذَهباً ودُرّا ، حتى يَرَوْا حلْو الحياة مُرّا

قال هِشام : ما هكذا أوصى يعقوبُ وَلدَه .

قال أبو النجم : ولا أنا كيعقوبَ ولا ولدي كولده .

قال : فما حال الأخرى ؟ قال : هي ظلامةُ التي أقول فيها :

كأنَّ ظلامةَ ، أختَ شيبانْ ، يتيمةٌ ، ووالداها حيّانْ

الرأسُ قملٌ كله وصئبان ، وليس في الرِّجلين إلا خيطان

فهي التي يُذْعَرُ منها الشَّيطان

قال هشام لحاجبه : ما فعلتَ بالدنانير التي أمرتُك بقبْضِها ؟

قال : هي عندي ، وهي خمسمائة دينار .

قال له : ادفعها لأبي النجم ليجعلَها في رِجْلَي ظلامةَ مكان الخيطين .

•

أبو عُبيدةَ قال : حدَّثني يونس بن حبيب قال :

لما استُخلِفَ مروانُ بن محمد دخل عليه الشعراء يهنّئونه بالخلافة ، فتقدَّمَ إليه طُريحُ بن إسماعيل الثَّقَفي ، خالُ الوليدِ ابن يزيد ، فقال: الحمدُ لله الذي أنعمَ بك على الاسلام إماماً ، وجعلَك لأحكامِ دينِه قِواماً ، ولأمةِ محمدٍ المصطفى جُنّةً ونظاماً ؛ ثم أنشده شعرَه الذي يقول فيه :

تَسوءُ عِداكَ ، في سَدادٍ ونَعْمةٍ ،
خلافتُنا تِسْعين عاماً وأشهُرا

فقال مروان : كم الأشهُر ؟ قال : وفاءُ المائة يا أمير المؤمنين ، تبلُغ فيها أعلى درجةٍ وأسعدَ عاقبةٍ في النُّصرةِ والتمكين . فأمر له بمائة ألف درهم .

ثم تقدَّم إليه ذو الرُّمّة مُتحانياً كَبْرةً قد انحلَّت عِمامَتُه مُنحدرةً على وجهِه ، فوقَف يُسوّيها ؛ فقيل له : تقدَّم ؛ قال : إني أُجلُّ أميرَ المؤمنين أن أخطُب بشَرفِه مادحاً بلَوثة عِمامتي .

فقال مَروان : ما أمّلتُ أنه قد أبقَت لنا منك مَيّ ، ولا صيدحُ[1] ، في كلامِك إمْتاعاً .

قال : بلى والله يا أميرَ المؤمنين ، أرِدْ منه قَراحاً ، والأحسن امتداحاً . ثم تقدَّم فأنشد شعراً يقول فيه :

فقلتُ لها : سِيري ! أمامَك سَيِّدٌ ،
تَفرَّعَ من مَروانَ او من مُحمَّدِ

فقال له : ما فعلتْ مَيّ ؟

فقال :

طُويَت غَدائِرُها بِبُردِ بِلىً ، ومَحا التُّرابُ محاسنَ الخَدِّ

فالتفَت مروان الى العَباس بن الوليد ، فقال : أما ترى

---

١ مي : صاحبة ذي الرمة . صيدح : ناقته .

القوافي تَنْثالُ انثيالاً ؟ يُعطى بكلِّ من سَمَّى من آبائي ألفَ دينار .

قال ذو الرُّمّة : لو علمتُ لبلغتُ عبدَ شمس .

•

الربيعُ حاجبُ المنصورِ قال : قلتُ يوماً للمنصورِ : إنَّ الشعراءَ ببابك وهم كثيرون طالت أيامُهم ، ونَفِدت نفقاتُهم ؛ فقال : اخرُج إليهم فاقرأ عليهم السلام ، وقُل لهم : من مَدَحني منكم فلا يَصِفني بالأسد ، فإنما هو كلبٌ من الكلاب ، ولا بالحَيّةِ ، فإنما هي دُويبّةٌ مُنتنةٌ تأكل التراب ، ولا بالجَبَل ، فإنما هو حجرٌ أصمّ ، ولا بالبحر ، فإنما هو غُطامطٌ[1] لَجِبٌ ، ومن ليس في شعره هذا فليدخُل ، ومن كان في شعره فلينصرف .

فانصرفوا كُلُّهم إلا إبراهيمَ بنَ هَرمة ، فإنه قال له : أنا له يا ربيع ، فأدخلني .

فأدخله . فلما مَثَل بين يديه ، قال المنصور : يا ربيعُ ، قد علمتُ أنه لا يُجيبُك أحدٌ غيره ، هات يابنَ هرمةَ .

فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

---

١ غطامط : عظيم الأمواج .

له لحظاتٌ عن حِفافَيْ سريرِه ،
إذا كَرَّها فيها عَذابٌ ونائلُ

لَهُ طِينةٌ بيضاءُ من آل هاشمٍ ،
إذا اسودَّ من كُومِ التُرابِ القبائلُ

إذا ما أَبى شيئاً مضى كالذي أبى ؛
وإن قال إنّي فاعِلٌ ، فهو فاعلُ

فقال : حسبُك ، هاهنا بلغتُ ، هذا عينُ الشعر ، قد أمرتُ لك بخمسة آلاف درهم .

فقُمْتُ إليه وقبّلتُ رأسه وأطرافَه ثم خرجتُ ، فلما كِدْتُ أن أخفى على عينيه سمعتُه يقول : يا إبراهيم .

فأقبلتُ إليه فَزِعاً ، فقلتُ : لبَّيكَ ، فِداك أبي وأمي .

قال : احتفظ بها فليس لك عندَنا غيرُها .

فقلت : بأبي وأمي أنت ، أحفظُها حتى أُوافيَك بها على الصراطِ بخاتَم الجِهْبذ .

•

علي بن الحُسين قال : أنشدَ عليُّ بن الجَهم جَعفراً المتوكل شعرَه الذي أوله :

هي النَّفسُ ما حَمَّلْتَها تَتحمَّلُ

وكان في يد المتوكل جوهرتان . فأعطاه التي في يمينه ، فأطرقَ مُتفكّراً في شيء يقوله ليأخذَ التي في يَساره ، فقال : ما لك مفكراً؟ إنما تفكّر فيما تأخذُ به الأخرى ، خُذْها لا بورك لك فيها . فأنشأ يقول :

بسُرّ من رَى إمامُ عدْلٍ ، تَعْرِفُ من بحرِه البِحارُ
يُرْجى ويُخشى لكلّ أمرٍ ، كأنه جَنّةٌ ونارُ
المُلكُ فيه وفي بَنيه ، ما اختلفَ الليلُ والنهارُ
يَداه في الجود ضَرّتان ، عليه كِلْتاهما تَغارُ
لم تأتِ منه اليمينُ شَيْئاً ، إلا أتَت مِثْلَه اليَسارُ

•

وقال آخر في الهَوْل :

إذا سألتَ النّدى عن كل مَكْرُمة ،
لم تُلفِ نِسْبتَها إلا إلى الهَوْلِ
لو زاحمَ الشمسَ ألفى الشمسَ مُظْلِمة ،
أو زاحم الصُّمَّ ألجاها إلى المَيْل[1]
أمضى من الدهر ، إن نَابتْه نائبةٌ ،
وعندَ أعدائه أمضى من السَّيْلِ

•

---

١ الصم : الجبال .

ودخل شاعرٌ من أهل الريّ يقال له أبو يزيد على عبد الله ابن طاهر صاحب خراسان فأنشده :

اشرَبْ هنيئاً ، عليك التاجُ مُرتفقاً ،
من شاذِيَاخَ ، ودَعْ غمدانَ لليَمنِ[1]

فأنتَ أولَى بتاجِ المُلْك تَلْبَسُه ،
من هَوْذةِ بنِ عليٍّ وابنِ ذي يَزَن

فأمر له بعشرة آلاف درهم .

•

ودخلت ليلى الأخيليّة على الحجّاج فأنشدته :

إذا وَردَ الحجّاجُ أرضاً مَريضةً ،
تَتَبَّع أقصَى دائِها فشَفَاهَا

شَفاها من الدّاء العُضَال ، الذي بها ،
غُلامٌ إذا هَزَّ القَنَاةَ سَقَاها

فقال لها : لا تقولي غلامٌ ، ولكن قولي هُمامٌ ؛ ثم قال: أيُّ النساء أحبُّ اليك أُنزلُك عندها ؟

---

١ مرتفقاً : ثابتاً دائماً . شاذياخ : مدينة نيسابور أم بلاد خراسان ، وكانت قديماً بستاناً لعبد الله بن طاهر بن الحسين . غمدان : قصر لملوك اليمن بين صنعاء وطيوة .

قالت : ومَن نِساؤك أيها الأمير ؟

قال : أمُّ الجُلاَس ابنةُ سعيد بن العاص الأمويّة ، وهِنْدُ ابنةُ أسماء بن خارجة الفَزاريّة ، وهندُ ابنةُ المُهلَّب بن أبي صُفْرة العَتَكية .

قالت : القَيْسِية[1] أحبُّ اليّ .

فلما كان من الغد دخلت عليه ، قال : يا غلام ، أعطِها خمسمائة .

قالت : أيها الأمير ، أَحْسِبُها أُدْماً[2] .

قال قائل : إنما أمر لك بشاء .

قالت : الأميرُ أكرمُ من ذلك .

فجعلها إبلاً إناثاً على استحياء ، وانما كان أمر لها بشاء .

•

---

١ القيسية : تريد هند بنت أسماء .

٢ الأدم : البيض من الابل ، وهي أكرمها .

الايدي السخية

كتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد . . . ٥
مدح الكرم وذم البخل ٧
الترغيب في حسن الثناء واصطناع المعروف . . ١٥
الجود مع الاقلال ٢٠
العطية قبل السؤال ٢٥
استنجاح الحوائج ٣٠
استنجاز المواعيد ٣٧
لطيف الاستمناح ٥٢
الاخذ من الامراء ٨٧
تفضيل بعض الناس على بعض في العطاء . . ٩١
شكر النعمة ٩٣
قلة الكرام في كثرة اللئام ٩٧
من جاد أولا وضن آخراً ١٠٠
من ضن أولا ثم جاد آخراً . . . ١٠٢
من مدح أميراً فخيبه ١٠٥
أجواد اهل الجاهلية ١١٠
أجواد أهل الاسلام ١٢١
الطبقة الثانية من الاجواد ١٣٦
اصفاد الملوك على المدح ١٤٩

العقد الفريد

١ السلطان وعدل ساعة
٢ تحت ظلال القنا
٣ الأيدي السخيّة
٤ وفود العرب

892.78:I1314ikA:v.3:c.1
البستاني، كرم
العقد الفريد
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01042083

American University of Beirut

892.78
I1314ikA
v.3

General Library

892.708
I132ikaA
v.3
c.1